مكتبة المدن الإسلامية
دراسات تاريخية وأثرية وعمرانية
تحت إشراف الدكتور السيد عبد العزيز سالم

تخطيط مدينة الإسكندرية وعمرانها في العصر الإسلامي

تأليف
الدكتور السيد عبد العزيز سالم
دكتوراه الدولة في الآداب من جامعة باريس
مدرس بكلية الآداب جامعة الإسكندرية
والمدرس المنتدب بجامعة بيروت العربية

دار المعارف لبنان ش.م.ل.

مكتبة المدن الإسلامية
دراسات تاريخية وأثرية وعمرانية
تحت إشراف الدكتور السيد عبد العزيز سالم

تخطيط مدينة الإسكندرية وعمرانها في العصر الإسلامي

تأليف
الدكتور السيد عبد العزيز سالم
دكتوراه الدولة في الآداب من جامعة باريس
مدرس بكلية الآداب جامعة الإسكندرية
والمدرس المنتدب بجامعة بيروت العربية

دار المعارف لبنان ش.م.ل.

مقدّمة عامّة
لمكتبة المدن الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

المدن الاسلامية :

تخطيطها واهم مراكزها العمرانية

راق لي ان افتتح هذه المجموعة القيمة ، بدراسة الموضوع من الوجهة العامة، نظراً لاهميته الكبرى بالنسبة لنظام العمران الاسلامي الحديث ، فان المدن العربية الاسلامية ما تزال تحتفظ حتى يومنا هذا بنظام التخطيط الاسلامي في العصر الوسيط ، وهو نظام يميزها عن غيرها من مدن الغرب ، ويكسبها طابعاً خاصاً اتسمت به ، ويكون لها شخصية اصيلة ، على الرغم من التطورات التي طرأت على نظام العمران في عصرنا الحديث .

والمدن الاسلامية نوعان: نوع يشتمل على المراكز العمرانية السابقة على الفتح العربي الاسلامي ، وهي المدن التي نزلها العرب ، وسكنوها ، واتخذوها حواضر لهم، لمساكنها التي كفتهم انشاء غيرها ، ولعمرانها المتطور، ولماضيها الزاهر . ثم تحولت هذه المراكز العمرانية بمضي الزمن ، وبفضل ما اضافه العرب الى عمرانها من تغيرات جوهرية ، الى مدن اسلامية ، لا تختلف عن المدن الاسلامية التي انشأها المسلمون الا بكثرة آثارها القديمة ، وباستقامة شوارعها الكبرى ، على نحو ما حدث في دمشق ، وحلب ، وطرابلس ، والاسكندرية ، وقرطبة ، وطليطلة .

والنوع الثاني انشأه العرب في العصر الاسلامي ، اما تمكيناً لمصالح المسلمين

الاقتصادية مثل مدينة مرسية والمرية ، واما تدعيماً لنظام الدفاع الاسلامي مثل قلعة جابر ، وقلعة ايوب ، وقلعة بني حماد ، وتونس ، وواسط ، واما لاغراض سياسية خاصة مثل مدينة بغداد ، او لتكون مركزاً عقائدياً، وحصناً لمذهب الدولة الحاكمة ، كالمهدية ، والقاهرة ، او تكون قد اسست تعبيراً عن فرحة الانتصار على اعداء الاسلام ، كالمنصورة، وحصن الفرج، ورباط الفتح، او لجعلها قواعد اسلامية ومراكز اشعاع للحضارة العربية والاسلامية في البلاد المفتوحة ، كالبصرة ، والكوفة ، والفسطاط ، والقيروان ، وواسط ، او نتيجة قيام دولة جديدة ، كالقطائع ، وبغداد ، وفاس ، ومراكش ، او لتكون موضعاً لراحة الامراء والسلاطين، مثل مدينة الزهراء ، ورقادة ، والقصر القديم، وعين جار، او لتكون معسكراً لجيوش الدولة مثل العسكر ، وسامراء .

ويقترن عصر الفتوح العربية الاسلامية بانشاء المدن والمراكز العمرانية الاسلامية ، وهو امر طبيعي بعد ان اتسعت رقعة الدولة العربية ، بالفتوحات الاسلامية في الشام والعراق وفارس ومصر والمغرب ، وبعد ان اتصل العرب في هذه الاقطار المفتوحة ببيئات حضارية متطورة [١] ، فاضطروا الى انشاء مراكز حضارية عربية اسلامية في هذه الاقطار ، لتعريبها، ونشر الاسلام فيها، ولمجاراة اهل البلاد في حياتهم المتحضرة ، وقد تجلى في هذه الحركة العمرانية ميل العرب الاصيل الى الفن ، اذ احاطوا انفسهم بكل مظاهر الابهة والاستمتاع بالحياة . فأقبلوا على الترف ، وحرصوا على التزين ، واستخدموا ملكاتهم الفكرية الحية كما استخدموا ملكات اخرى خصبة ، تنبع من صميم حياتهم ، في خدمة الفن الاسلامي، وهي ملكات الحس والشعور والخيال ، وعلى هذا الاساس وحده، تم تشكيل العناصر المعمارية الاسلامية الجديدة ، وابتكار التعبيرات الفنية في

---

١ — عبدالرحمن بن محمد بن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي ، ج ٣ ، القاهرة ١٩٦٠ ص ٨٣٠ .

الدولة العربية الاسلامية [1] .

ولا شك ان البناء والعمران من مستلزمات التحضير والتأنق ، وهو على حد قول ابن خلدون من « منازع الحضارة التي يدعو اليها الترف والدعة كما قدمناه ، وذلك متأخر عن البداوة ومنازعها » [2] .

ويتوقف عمر المدينة على مدى استقرار الدولة وتأصل الملك ، فعمر الدولة ، على حد قول ابن خلدون ، عمر لها ، « فان كان عمر الدولة قصيراً ، وقف الحال فيها عند انتهاء الدولة ، وتراجع عمرانها وخربت ، وان كان امد الدولة طويلا ، ومدتها منفسحة ، فلا تزال المصانع فيها تشاد والمنازل الرحيبة تكثر وتتعدد ، ونطاق الاسواق يتباعد وينفسح ، إلى ان تتسع الخطة ، وتبعد المسافة ، وينفسح ذرع المساحة ، كما وقع ببغداد وأمثالها ... وكذا حال القيروان وقرطبة والمهدية في الملة الاسلامية ، وحال مصر القاهرة بعدها » [3]. وعلى هذا النحو اقام العرب بعد افتتاحهم بلاد الشام والعراق وفارس ومصر والمغرب مدناً ، كان الغرض منها اساساً ، انشاء قواعد حربية ومعسكرات للجند [4] ، واقامة مراكز اشعاع للغة العربية والدين الاسلامي في قلب الاقطار المفتوحة . واولى هذه المدن التي انشأها العرب بعد فتح العراق ، مدينة البصرة، اختطها المسلمون ايام عمر بن الخطاب ، ومصرها عتبة بن غزوان [5] سنة ١٥ هـ ، ومدينة

---

١ – احمد فكري، المدخل الى مساجد القاهرة ومدارسها ، الاسكندرية ، ١٩٦١ ص ٣١ .
السيد عبد العزيز سالم ، القيم الجمالية في فن العمارة الاسلامية ، بيروت ١٩٦٣ .

٢ – ابن خلدون ، المقدمة ص ٨٣٠ .

٣ – نفس المرجع ص ٨٣٠ .

٤ – نقولا زيادة ، لمحات من تاريخ العرب ، بيروت ١٩٦١ ص ٣٦ .

٥ ابن حوقل ، صورة الارض ، بيروت ١٩٦٢ ص ٢١٢ – ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان، تحقيق دي غويه ، ليدن، ١٨٨٥ ، ص ١٨٨ – المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، تحقيق دي غويه، ليدن، ١٩٠٦، ص ١١٧ – يعقوب سركيس، مقال عن البصرة بمجلة سومر ، ج ١ ، مجلد ٤ ، بغداد ١٩٤٨ .

الكوفة التي اختطها سعد بن ابي وقاص ، بامر عمر بن الخطاب سنة ١٧ هـ [١]، كما اتيح لمصر بعد ان امتدت اليها اشعة الاسلام، ان تشهد عاصمة جديدة هي الفسطاط ، اسسها عمرو بن العاص سنة ٢١ هـ ، بدلاً من مدينة الاسكندرية ، العاصمة القديمة [٢] . ولما فتح عقبة بن نافع الفهري ولاية افريقية ، اسس مدينة القيروان في سنة ٥٠ هـ [٣].

وهكذا تميز هذا العصر بانشاء المدن الاسلامية في سائر انحاء العالم الاسلامي فيما عدا الشام ، فلم تنشأ فيه مدن اسلامية ، لانه كان يزخر بالدور التي هجرها اصحابها ، فراراً من جيوش العرب ، فاستولوا عليها ، وصارت أخائذ لهم ، تغنيهم عن بناء دور جديدة [٤]. ومع ذلك فقد اقيمت في الشام مدينة اسلامية واحدة ، هي مدينة الرملة التي احدثها سليمان بن عبد الملك ، ومصرها [٥].

وقد اتبع المسلمون في العصور المختلفة خطة بناء المدن الاسلامية ، تمكينا لنفوذهم في البلاد التي دخلت في فلك الدولة العربية الاسلامية ، مثل مدينة تونس التي اقامها حسان بن النعمان الغساني سنة ٨٤ هـ ، بالقرب من قرطاجنة ، وانشأ فيها داراً لصناعة الاسطول[٦] . كما اقيمت العسكر في الشمال الشرقي من الفسطاط سنة ١٣٣ هـ ، والقطائع الى الشمال الشرقي منها سنة ٢٥٦ هـ ، والمهدية بتونس سنة ٣٠٣ هـ ... الى آخره . وكانت هذه المدن تتسمى باسماء عربية اصيلة مثل

---

١ – ابن حوقل، ص ٢١٥ – ابن الفقيه، ص ١٦٢ – ١٦٥ – المقدسي، ص ١١٦ ، ١١٧ .

٢ – السيد عبدالعزيز سالم ، الفسطاط ، مقال بدائرة معارف الشعب ، كتاب الشعب رقم ٧٩ ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٤١ – ٥٧ .

٣ – ابن عبدالحكم ، فتوح افريقية والاندلس ، نشره البير جاتو ، الجزائر ١٩٤٧ ص ٦٢ – عبيدالله البكري ، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، نشره دي سلان ، الجزائر ١٩١١ ص ١٣ – ابن عذارى المراكشي ، طبعة بيروت ، ج ١ ، ص ١٤ .

٤ – السيد عبدالعزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي ، الاسكندرية ١٩٦١ ص ٣٩ .

٥ – البلاذري ، فتوح البلدان ، نشره الدكتور عبدالله الطباع .

٦ – البكري ص ٣٨ .

مدينة الكوفة، من تكوف الرمل اى تكومه، او من الرمل الذي خالطه الحصى، ومثل الفسطاط وتعنى الخيمة ، والقطائع ، وتعنى الخطط ، والقاهرة اي المدينة التي تقهر الدنيا ، ومثل الرملة من كثرة الرمل ، والعسكر من مخيمات الجند ، والمنصورة في موضع الواقعة التي انتصر فيها الايوبيون ومماليكهم على جيش لويس التاسع ، والمهدية نسبة الى عبيد الله المهدي ، مؤسس الدولة الفاطمية ، والرباط اى المدينة التي يخرج منها المجاهدون في سبيل الله للحرب المقدسة في الاندلس . بينما اشتق المسلمون اسماء بعضها من اسماء قديمة اصولها فارسية، مثل بغداد، عاصمة الدولة العباسية التي قامت على اكتاف الفرس[١] ، او بربرية ، مثل مراكش التي اسسها يوسف بن تاشفين[٢] ، ومثل فاس التي انشأها ادريس بن ادريس بن عبدالله بن الحسن في المغرب الاقصى[٣] .

ونلاحظ في بناء المدن الاسلامية ان العرب في النصف الاول من القرن الاول الهجري ، حرصوا عند تخطيط مدنهم ، ان تكون في داخل البلاد بعيداً عن السواحل حتى لا تتعرض للغزوات البحرية ، وراعوا فيها ايضاً ما كان يتناسب مع حياتهم البدوية من مراعي الابل وما يصلح لها ، كالقيروان والكوفة ، وفي ذلك يقول ابن خلدون: «وقد يكون الواضع غافلاً عن حسن الاختيار الطبيعي، او انما يراعي ما هو اهم على نفسه وقومه، ولا يذكر حاجة غيرهم، كما فعله العرب لاول الاسلام في المدن التي اختطوها بالعراق وافريقية ، فانهم لم يراعوا فيها إلا الاهم عندهم من مراعي الابل وما يصلح لها من الشجر والماء الملح، ولم يراعوا الماء ولا المزارع ولا الحطب ولا مراعي السائمة من ذوات الظلف ، ولا غير ذلك ،

١ - بغداد مشتقة من الفارسية باغ اي بستان ، وداد اسم شخص يملكه (ارجع الى ياقوت ، معجم البلدان ، مادة بغداد) .

٢ - عبد الواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، القاهرة - ابن الخطيب ، الحلل الموشية ، تونس ، ١٣٢٩ ﻫ ص ١٣ .

٣ - ابن ابي زرع ، كتاب روض القرطاس ، نشره تورنبرج، اوبسال ، ١٨٣٩ - الجزناءي، كتاب زهرة الآس في بناء مدينة فاس، نشره الفريد بيل ، الجزائر ١٩٢٢ ، ص ١٩ .

كالقيروان والكوفة ، والبصرة ، وامثالها ، ولهذا كانت اقرب الى الخراب لما لم تراعَ فيها الامور الطبيعية » [١]. اما نفور العرب من المواقع الساحلية، فيرجع الى بداوتهم، وعدم المامهم بالشؤون البحرية، لكونهم بدواً يعيشون في الصحراء، ولا يحاربون الابرا [٢]. ولذلك كتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص ينهاه عن اختيار الاسكندرية عاصمة لمصر ، كما كتب الى سعد بن ابي وقاص في مدائن كسرى ، والى عامله بالبصرة ، الا يجعلوا بينه وبينهم ماء ، متى اراد ان يركب راحلته اليهم حتى يقدم اليهم فعل، فعدل عمرو عن اختيار الاسكندرية، وانشأ الفسطاط حاضرة لمصر ، وراعى في اختيار موضعها ان تكون في داخل البلاد ، وقريبة من حصن بابليون [٣]. وكذلك عدل سعد بن ابي وقاص عن اتخاذ المدائن حاضرة للمسلمين ، وانتقل منها الى الكوفة بالقرب من الجانب الغربي من نهر الفرات ، وبجوار الحيرة القديمة ، فاختطها ، وتحول صاحب البصرة من الموضع الذي نزل فيه الى موضع البصرة .

ويشترط ابن خلدون في تأسيس المدن ان تتوفر فيها الشروط الثلاثة الآتية:

١ – ان تقع في موضع استراتيجي حصين ، كأن تكون على هضبة متوعرة، او في استدارة بحر ، او انحناءة نهر ، حتى لا يصل اليها العدو الا بعد العبور على جسر ، فيصعب بذلك منالها عليه ، ويتضاعف امتناعها مثل سبتة وبجاية .

---

١ – ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٣ ص ٨٣٩ .

٢ – يقول ابن خلدون : « والسبب في ذلك ان العرب لبداوتهم ، لم يكونوا اول الامر مهرة في ثقافته (اي البحر) وركوبه ، والروم والافرنجة لممارستهم احواله، ومرباهم في التغلب على اعواده ، مرنوا عليه ، واحكموا الدربة بثقافته» .

٣ – المقريزي، الخطط، ج ١ ص ٢٨٦ (طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ) – السيوطي، حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة ، القاهرة ، ١٣٢٧ هـ ، ج ١ ص ٥٧ – جمال الدين الشيال ، الفسطاط ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، المجلد ١٢ ، ١٩٥٨ ص ١٣٤ – عبدالعزيز سالم ، الفسطاط ، كتاب الشعب رقم ٧٩ – وتاريخ الاسكندرية في العصر الاسلامي ، ص ٤٠ .

٢ – ان تؤسس في موضع طيب الهواء حتى لا يتعرض اهلها للأوبئة ، وان تتجنب المناطق التي يركد فيها الهواء ، او التي تجاور المستنقعات المتعفنة ، ومن امثلة المدن التي اشتهرت بفساد هوائها : بلدة قابس من بلاد الجريد بتونس .

٣ – ان تقع في مناطق زاخرة بالمرافق كالماء والمراعي [١] .

اما بالنسبة للمدن الساحلية فلا بد ان يتوفر فيها شرط هام ، هو ان تكون على اعلى جبل حتى لا ترام ولا تكون في غرة للبيات ، ويسهل طروقها في الاساطيل البحرية كما كان يحدث في الاسكندرية ، وطرابلس الغرب ، وسلا [٢].

وقد عمل بناة المدن الاسلامية على ان يتوسطها المسجد الجامع ، كما راعوا ان تكون شوارعها الرئيسية مخططة بحيث تتلاقى في ساحة الجامع، وعلى هذا النحو كان المسجد الجامع هو اساس العمران في المدن الاسلامية، وحتى في المدن المفتوحة التي استولى عليها العرب فصبغوها بالصبغة الاسلامية ، وذلك ببناء المساجد الجامعة على انقاض الكنائس الكبرى بهذه المدن ، او مشاركة النصارى في هذه الكنائس، على نحو ما فعلوا في دمشق، حين شاطروا النصارى كنيستهم الكبرى يوحنا المعمدان ، وفي قرطبة حين شاركوا النصارى كنيستهم المعروفة بشنت بنجنت . وأصبح المسجد الجامع بمرور الزمن مركز المدينة وقلبها ، فمنه تتفرع الطرق الكبرى المؤدية الى ابواب المدينة، وحول ساحته تقام الاسواق والحمامات والفنادق والقيساريات ، وفيه تعقد الاجتماعات السياسية ، وتوزع ألوية الجيش ، وتدرس العلوم الدينية، فليس غريباً اذن ان يسيطر الجامع على الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في المدينة ، ويصبغها بالصبغة الاسلامية ، وليس عجيباً أن تتحول هذه المدن التي فتحها العرب إلى مدن اسلامية لا تختلف عن المدن التي أنشأها العرب ، إلا بكثرة ابنيتها القديمة الدالة على الحضارات السابقة على الفتح

---

١ – ابن خلدون، المقدمة ، ج ٣، ص ٨٣٧ – ٨٤٠ .

٢ – نفس المرجع ص ٨٤٠ .

الاسلامي كالجسور ، والقناطر ، وأقواص النصر ، والحمامات ، والملاعب، ودور الصناعة ، والاسوار .

وتتفق المدن الاسلامية جميعاً سواء في المشرق أو في المغرب ، وسواء أكانت مدناً مفتوحة ام مدناً أسست في عهد الاسلام، في مظهرها العمراني العام، ونعني به طريقة تخطيطها ، وتوزيع مراكزها العمرانية، وضيق شوارعها ، وتعرجها ، وتشعب طرقاتها ، كما تتفق في ابنيتها عامة باستثناء تفاصيلها الزخرفية ، او ما اضطرت الى التماسه بتأثير المناخ أو الموقع أو طبيعة المكان. وتتمثل هذه الظاهرة في المغرب والاندلس كما تتمثل في مصر والشام والعراق ، ويمكن تفسيرها بأن المسجد الجامع الذى لا يختلف كثيراً في نظام بنائه في سائر انحاء العالم الاسلامي كان يعتبر اساساً للتنظيم العمراني للمدينة ، والمركز الديني الذي تلتف حوله بقية مراكزها العمرانية، والقلب الذي ينبض بالحياة ، ويهبها النشاط والحركة . وكان تشييد المساجد الجامعة في الاسلام أساس العمران في المدن الاسلامية البحتة ، والمفتوحة التي يراد طبعها بطابع الاسلام، فكان المسلمون منذ فجر الاسلام، وفي زمن الفتوحات الكبرى يشيدون المسجد الجامع بادىء ذي بدء، رغبة في إضفاء الصبغة الاسلامية على المدن التي كانت وثنية او مسيحية ، كما كانوا يبدأون بإنشاء الجامع قبل اي بناء آخر عند تأسيسهم المدن الاسلامية ، فعندما عزم سعد بن ابي وقاص على تأسيس الكوفة سنة ١٧ هـ (٦٣٨ م) ، بعد ان افتتح المدائن حاضرة الدولة الساسانية، بدأ بتأسيس المسجد الجامع،واقام فيما يلي جدار القبلة داراً للامارة ملاصقة له ، واختطت كل قبيلة خطة حول الجامع ، وأقيمت الاسواق في ساحته ، وكانت الكوفة على هذا النحو اشبه بقرية مبانيها ساذجة بسيطة. كذلك أقام عمرو بن العاص عند بنائه للفسطاط مسجده الموسوم باسمه، وهو أول جامع أقيم بمصر فسمي بجامع الفتح او تاج الجوامع ، وأقام لصقه شرقي المسجد داراً كبيرة له، وتوزعت حول الجامع الدور والخطط. ونستدل كذلك من أقوال المؤرخين أمثال ابن عذارى والبكري ، أن حسان بن النعمان أقام عند تأسيسه لمدينة تونس قبل كل شيء مسجداً جامعاً سنة ٨٤ هـ (٧٠٣ م) ، ولعله

نفس المسجد الجامع الذي اقـامه عبيد الله بن الحبحـاب بعد ذلـك سنة ١١٤ ﻫ (٧٣٢ م) ، وعرف باسم جامع الزيتونة . ويشير ابن عذارى الى ان عقبة شرع عند تأسيسه لمدينة القيروان في بناء مسجدها الجامع، ولم تلبث المدينة ان عمرت بعد تخطيط الجامع بالدور ومختلف الأبنية والمساجد ، وشد الناس اليها الرحال، وعظم قدرها ، واصبحت بحق قاعدة للمسلمين في بـلاد المغرب . أمـا البـلاد المفتوحة فقد اكتفى المسلمون بمشاركة النصارى في كنائسهم، كما فعلوا في الشام حين شاطروا نصارى دمشق كنيستهم الكبرى المعروفة بيوحنا المعمدان وأقاموا في النصف الشرقي من هـذه الكنيسة مصلى يؤدون فيـه الصلاة ، حتى كانت ايام الوليد بن عبد الملك ٨٨ – ٩٦ ﻫ (٧٠٧ – ٧١٤ م) إذ هدم الكنيسة ، واقام مسجداً جامعاً جديداً في موضعها. وحدث في الاندلس نفس ما حدث في الشام اذ امتثل المسلمون الفاتحون لقرطبة ما فعله ابو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد عن رأي عمر بن الخطاب من مشاطرة النصارى في كنائسهم فشاطروا نصـارى قرطبة كنيستهم العظمى التي كانت تقع داخل مدينة قرطبة نفسهـا بالقرب من السور الجنوبي الذي يحيط بها ، ومن مقابل باب القنطرة، وابتنوا في هذا الشطر جامعاً بسيط البناء ، غـير منتظم التخطيط ، اسس حنش الصنعاني وأبو عبـد الرحمن الحبلي التابعان ، قبلته بأيديها ، وتركوا النصف الآخر للنصارى يقيمون فيه شعائرهم الدينية . كذلك اقيم جامعا الجزيرة الخضراء وطليطلة على أنقـاض كنائس قديمة ، وأصبح بناء المساجد في المدن المفتوحة باسبانيا وايران والهنـد أساساً لتمكين الفتح الاسلامي ورمزاً للتغلب والتفوق الحربي والديني معاً. وكان لذلك رد فعل قوي على الاخص في اسبانيا بالذات اذ عمد الاسبان عند استردادهم للمدن الاسلامية الى تنصير مساجدها، وتحويلها الى كنائس وكاتدرائيات، وأصبح المسجد او الكنيسة في اسبانيا المنقسمة بين الاسلام والنصرانية، الرمز الدال على الدين الغالب ، ويتجلى ذلك بوضوح في محاولة أهل اشبيلية عام ١٢٤٨ م هـدم صومعة جامعهم المعروفة بالجيرالدا حين أيقنوا بسقوط مدينتهم، بعد ان خـاب املهم في اخوانهم بالمغرب، وقنطوا من انقاذ دويلات المغرب لمدينتهم المحتضرة ،

وقد توعدهم الامير الفونسو بن فرناندو الثالث بالموت ان نفذوا هذه المحاولة ، وأمام هذا الوعيد تراجع المسلمون عن عزمهم. ولما دخلت جيوش قشتالة المدينة بادرت برفع النواقيس بأعلى المئذنة لتكون رمزاً لانتصارهم [١] .

كل ذلك يدل دلالة واضحة على الدور الذي لعبه المسجد الجامع في المدينة الاسلامية ، وعلى أهمية هذا المركز الديني بالنسبة للمراكز العمرانية الاخرى في المدينة [٢] . فكانت الاسواق العامرة بالثياب والديباج وحوانيت العطور والصاغة والعطارين تقام في ساحة الجامع ورحبته المحيطة به ، كما كان يتجمع فيها حشد كبير من الباعة المتجولين ، وكانت تتفرع من هذه الساحة طرق المدينة الرئيسية ودروبها وشوارعها التي تفضي إلى الأبواب الخارجية ، وهكذا صار المسجد الجامع نقطة التحول في دراسة الطبوغرافية التاريخية للمدينة الاسلامية ، ولأهميته هذه أولاه بعض مؤرخي العرب عناية كبرى ، فالمقريزي يهتم بذكر المساجد في خططه والمقري يعنى بجامع قرطبة في كتابة نفح الطيب ، وابن ابي زرع صاحب كتاب روض القرطاس يكرس كتابه كله لذكر تاريخ جامعي مدينة فاس، وهما جامع القرويين وجامع الأندلسيين. ويتلو المركز الديني مباشرة في أهميته المركز الصناعي الاقتصادي، فقد كانت الحركة التجارية وما تزال حتى اليوم على أشدها فيما يحيط بالمسجد الجامع ، ذلك لان عدداً كبيراً من الحوانيت كان يؤلف في مجموعه قيسارية اي سوق . وكانت الشوارع المحيطة بالجامع تتسمى بنوع ما يباع او يصنع فيها مثل درب الخياطين، والصباغين، والحطابين، والفخارين، والحصارين، والنحاسين او الصفارين، والوراقين، والزجاجين، والسقاطين، والبزازين، وسوق الصاغة، وغيرها. وقد ظل بعض هذه الاسماء يطلق على أحياء بأكملها في المدن الاسلامية، مثل حي العطارين بالاسكندرية، والنحاسين بالقاهرة، والصفارين

---

١ – السيد عبد العزيز سالم ، إحدى روائع الفن الاندلسي ، لاخيرالدا ، مجلة المجلة عدد ٩ ، ١٩٥٧ .

٢ – Torres Balbas : los edificios Hispano - Musulmanes , Revista del Instituto Egipcio , No 1 , 1953 , P . 92 - 98 .

بفاس ، والبزورية او العطارة بدمشق، والكتبية بمراكش... الى آخر. كذلك ظلت أسماء بعض أحياء مدن الاندلس متداولة حتى يومنا هذا مثل Calle de los Alfayates شارع الخياطين واسم Los Alatares العطارين ، واسم شارع Alfondiga الفندق، والسبب في احتفاظ أسواق هذه المدن بالاسماء العربية هو ان المدينة حتى بعد سقوطها في أيدي الاسبان، كانت تحتفظ بنفس مراكزها العمرانية الاسلامية، فالمسجد الجامع يتحول الى كاتدرائية، تتركز حولها الحركة التجارية والاقتصادية بمثل ما كانت عليه في العصر الاسلامي ، واحتفظ السوق في اسبانيا المسيحية باسم القيسارية Alcaiceria ، وما زالت لفظة Zoco بالاسبانية تعني السوق ، ومنها Zocodover ، وهو اسم ما زال شائعاً في قرطبة ومالقة واشبيلية ، ومعناه سوق الدواب ، وما زال يطلق في طليطلة على أهم ميدان في هذه المدينة ، وهو نفس السوق الذي كانت تباع فيه الدواب في العصر الاسلامي . وقد تبقت في القاهرة آثار قيسارية تعرف اليوم باسم خان الخليلي ، وهي خليط من أبنية قديمة وحديثة أضيفت في عصور مختلفة ، وانتهت بتأليف شبكة من الدروب الضيقة والحارات ، وتعتبر مركزاً سياحياً غاية في الروعة والجمال، إذ يفد إليه السائحون لمشاهدة عمليات التطعيم والتكفيت في النحاس ، التي ورثها الصناع المصريون عن اجدادهم . وقد اسس هذه القيسارية الامير شركس الخليلي في نهاية القرن الرابع عشر واليه تنسب ، كما تبقت في غرناطة آثار قيسارية إسلامية يرجع تاريخها الى القرن الخامس عشر ، وفي دمشق تبقت آثار السويقة القديمة وسوق صاروجا [1] . وفي طرابلس الشام تبقى سوق الحراج . وكانت الحوانيت الاسلامية في العصور الوسطى لا تعدو أن تكون اماكن ضيقة، قليلة الارتفاع، أشبه ما تكون بالخزانات المقامة داخل الجدران، وكانت أبواب هذه الحوانيت تغلق بألواح متحركة تربطها مزاليج محكمة، وكان يعلوها ظلة مائلة من الخشب او الحصير ، تقي البائع وعملاءه والسلع من حرارة الشمس ، ومثل

---

١ – جان سوفاجيه ، دمشق الشام ، لمحة تاريخية . ترجمة الاستاذ فؤاد افرام البستاني، بيروت ١٩٣٦ ص ٤١ .

هذه الحوانيت ما يزال قائماً في فاس ، ومكناس ، ومراكش ، وبعض الأحياء القديمة بالقاهرة ، ودمشق ، وبغداد ، كما نراها فيما تبقى من قيسارية غرناطة بعد حريق ١٨٤٣ ، وأشباه هذه الحوانيت ممثل في كتاب « اناشيد الفونسو العالم Las Càntigas de Alfonso el Sabio ، وتبدو السلع المختلفة في الصور الواردة في هذا الكتاب منتظمة في صفوف داخل رفوف متراصة الواحد فوق الآخر ، أو في تجويفات تحيطها عقود منفوخة متجاوزة .

وتعتبر الفنادق أو الخانات من الأبنية الاقتصادية الهامة في المدينة الاسلامية، اذ كان الغرض منها ايواء التجار الغرباء ، وخزن كميات كبيرة من السلع قبل توزيعها على تجار القطاعى . وكان الفندق في أغلب الاحيان بناء متواضعاً للغاية، يضم عدداً كبيراً من الغرف العارية من الاثاث ، وكان المسافر لا يجد فيه سوى غطاء يتدثر به ، وحصير ينام عليه . أما الخيل والدواب، فكانت تربط في فناء الفندق او الخان . ولم يبق في اسبانيا من الفنادق الاسلامية بحالته الاولى سوى فندق الفحم بغرناطة، ويرجع الى القرن الرابع عشر. وما زالت اسماء الفنادق تطلق على بعض الشوارع الاسبانية كما هو الحال في شارع الفندق Calle de la Alfondig ببلنسيه واشبيلية . وفي القاهرة أثر جليل لخان الزراكشة الذي يرجع الى طليعة القرن السادس عشر، ويقع غربي الجامع الازهر. وفي طرابلس بلبنان تبقت آثار عدد من الخانات ، منها خان الخياطين وخان العسكر [1] . وكانت مناطق انتشار الفنادق او الخانات تقع بالقرب من المساجد الجامعة حيث يكثر الرحالة والمسافرون، بينما يقل ازدحامها في المناطق النائية عن المركز او الواقعة بأطراف المدينة او الأرباض حيث تقل كثافة السكان .

والى جانب الفندق كان هناك في المدن الاسلامية بناء يشغل ركناً هاماً من أركان المركز الاقتصادي بالمدينة الاسلامية هو دار الصناعة ، وهو بناء كانت تصنع فيه السفن والشواني والاجفان، كما كانت تصنع فيه الاسلحة والآلات

١ – السيد عبدالعزيز سالم ، طرابلس الشام ، تاريخها وآثارها في العصر الاسلامي ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٦٣ ص ٩٨ – ١٠٠ .

ومعدات الحرب في البر والبحر ، وكانت دور صناعة السفن تسمى احياناً بدور صناعة القطائع ، واحياناً بدور صنــاعة الانشاء ، وأحياناً أخرى بدور صناعة الاسطول . وشهرة اسبانيا الاسلاميــة بدورها الصناعيــة تفوق دول المشرق ، وذلك لكثرة موانيهــا وثغورهــا ، كالمرية ، ومرسية ، وبرشلونة ، وبلنسية ، وطرطوشة ، ومالقة ، والجزيرة الخضراء ، وإشبيليــة ، وشلب ، وأشبونــة ، وقادس ، كما عرفت بعض مدنها الداخلية بصناعة الآلات البحرية مثل مدينــة مرتولة ، وشلب ، وطليطلة ، وقرطبة وغيرها . وشاع بناء دور الصناعة في بلاد المغرب في العصر الفاطمي فكانت هناك دوراً للصنــاعة في المهديــة ، وتونس ، والمنصورية، وقلعة بني حماد ، وبجاية ، وسبتة ، وطنجة، وما زالت بعض آثار دور الصناعة قائمة حتى يومنا هذا في المهدية ، وتونس .

واشتهرت مدن مصر الاسلامية بصناعة السفن الحربية منذ ولاية عبدالله بن سعد على مصر ، فلما حــاول الاسطول البيزنطي بقيــادة الامبراطور كنستانس الثاني غزو الاسكندرية سنة ٣٤ هـ تصدى له أسطول الاسكندرية بقيادة عبدالله ابن سعد،وأسطول الشام بقيادة بسر بن أبي أرطأة،وحدثت موقعة ذي الصواري التي انتصر فيها المسلمون انتصاراً ساحقاً . ومنذ ذلك العهد اهتم المصريون بدور الصناعة ، فأقيمت في الروضة والقلزم . وظلت دار الصناعة بالاسكندرية قائمــة حتى العصر العثماني،وتحولت لفظة دار الصناعة الى كلمة ترسانة في الوقت الحاضر. كذلك أقيمت بمدن الشام الساحلية دور لصناعة الاسطول في عهد بني أمية في عكا وصيدا وصور، وتمكن اسطول الشام من الاستيلاء على جزيرة قبرص سنة ٢٨ هـ، لتكون قاعدة يرسل منهــا المسلمون صوائفهم على شواطىء الاعداء ، ويقطعون الطريق على سفنهم في البحر .

وبالاضافة الى الأساطيل الحربية كانت هناك أساطيــل تجــارية استخدمت للتجــارة بــين المدن الاسلاميــة ، ومدن البحر الابيض المتــوسط ، كجنوة ، والبندقية، وبلنسية، والمرية. وقد انتقلت لفظة دار الصناعة الى اللغة الاسبانية

تحت اسم Atarazana ، ومن اسبانيا انتقلت الى اوروبا، فعرفت في اللغة الفرنسية والانجليزية باسم Arsenal .

ولم تبق من دور الصناعة الاسلامية في العصر الوسيط باسبانيا سوى بقايا دار الصناعة الاسلامية بمالقة ، وآثار دار الصناعة التي اقامها الفونسو العاشر باشبيلية سنة ١٢٥٢ .

والنظام المعماري لدار الصناعة الاسلامية يشبه الى حد كبير نظام بيوت الصلاة في المساجد .

وكانت أسقف دور الصناعة قبوات من البناء بدلاً من لوحات خشبية مسطحة، تلافياً للحرائق الناشئة من صهر المعادن وغير ذلك. ومثل هذه القبوات نراه في دار صناعة علاية بتركيا ، وهي الدار التي أقامها السلطان السلجوقي علاء الدين كيقباد ، فيما بين ١٢١٩ ، ١٢٣٦ م .

وننتقل الآن الى المركز الاجتماعي، وهو دعامة الحياة العمرانية بالمدينة الاسلامية، اذ يشتمل على دور السكنى والمؤسسات العامة كالاسبلة ، والحمامات ، والقناطر ، والقنوات ، وشبكات المياه ، والطرق ، والشوارع وغيرها .

وأغلب شوارع المدن الاسلامية ضيق في تخطيطه، متعرج في سيره، وكانت بمنافذ الشوارع أبواب تعمل على تيسير إغلاقها اثناء الليل تأميناً لسكانه من سطو اللصوص . وكانت تربط بين الشوارع الرئيسية في المدينة بعضها ببعض حارات ضيقة غير مستقيمة في تخطيطها تكوّن شبكة ، خطوطها متعرجة متداخلة ، وتؤدي هذه الحارات الى أزقة ، ودروب ، وزنقات ، بعضها مغلق وبعضها نافذ ، وكان هناك خفراء يقومون بحراسة هذه الشوارع والسهر عليها ، ويسمون في المشرق بأصحاب أرباع، وفي المغرب والاندلس بالدرابين، وكان يعهد اليهم اغلاق الابواب بعد العتمة ، والسهر عليها ، والقبض على من يتجرأ بفتح أغلاقها . وكان الباب على هذا النحو عاملاً قوياً في خلق روح التعاون والتفاهم بين سكان الدرب الواحد، وكان المحتسب يأمر بالعناية بنظافة الطرق والشوارع،

ومن ذلك قول ابن عبدون في كتاب آداب الحسبة : «يجب ان يؤمر أهل الارباض بحمايتها من طرح الزبول والاقذار والكناسة فيها واصلاح المواضع المتطامنة التي تمسك الماء والطين ، ويصلح كل أحد فناء داره ويحميه ، فـان كان الموضع كثير القنوات يجبر على عمل سرب فيه واصلاحه » . وتتخذ شوارع المدن الاسلاميـة اشكالاً ملتويـة متدرجة، تتشعب منها الدروب والازقة الضيقة التي لا تدخلها الشمس لكثرة انثناءاتها ، وتقارب صفي الدور على جانبي الطريق . أمـا المدن الرومانية الطابع التي فتحها العرب، فقد كانت شوارعها واسعة مستقيمة ، وكان بها شارعان يؤلفان محوري المدينة : احدهما المحجة العظمى او السكـة العظمى Cardo Maximus، والثاني يعرف باللاتينية Documanus [١]، على نحو طريقي كانوب والسيما بالاسكندرية ، وشارع بين القصرين في القاهرة والمهدية ، والمحجة العظمى بقرطبة وحلب ودمشق . وما يكاد العرب يفتحون هذه المدن الرومانية الطابع حتى تصبح إسلامية، وما تلبث انتتخذ الطابع الاسلامي، وتتشعب من شوارعها المعتدلة أزقة ودروب ملتوية . وفي هذه الشبكة المعقدة من الدروب والأزقة ، كانت تبدو بين الحين والآخر رحبة فسيحـة بعض الشيء ، تسـاعد على كشف مظهر العظمة والجمال اللذين يكمنان في ابنيتها ، وإظهار مواطن الروعة فيها ، ولكنها لم تكن بنفس الاتساع الذي هي عليه اليوم .

وتعتبر الدار أهم أبنية المركز العمراني الاجتماعي بالمدينة،وكانت كثافة الدور تزداد كلما اقتربنا من قلب المدينة حيث المسجد الجامع ودار الامـارة . وينشأ المنزل الاسلامي عادة من فراغ حسب تعبير الاستاذ ايلي لامبير ، اذ أنـه كانت تقوم حول هذا الفراغ المركزي الذي يؤلف صحن البيت أو بهوه غرف ملتصقة، تطل أبوابها وفتحاتها عليه. وكان المظهر الخارجي للدار بسيطاً كل البساطة يخلو عادة من النوافذ وهو مظهر يتعارض كلية مع المظهر الداخلي ، حيث تتركز كل

---

١ – Torres Balbas : Les villes musulmanes d'Espagne et leur Urbanisation, Annales de l'Institut d'Etudes Orientales, t. VI, années; 1942 - 1947, Alger, P. 5 - 30 .

مظاهر الحياة الاسرية، وحيث تتراكم جميع الزخارف. وكانت الواجهة الخارجية مع بساطتها تطلى عادة بالجير. وقد لاحظ ابن سعيد المغربي الفرق بين سواد البيوت المصرية وضيقها، وبياض بيوت الاندلس واتساعها. ويمكن تفسير الاهتمام بداخل البيت دون خارجه تفسيراً نفسياً بأن المرأة المسلمة قلما كانت تخرج من دارها، وكانت تقضي كل حياتها في داخل بيتها، فمن الطبيعي اذن ان يهتم البنّاء بداخل البيت، فيزين الجدران بزخارف الجص، ويتأنق في كسوتها بتربيعات القاشاني والزليج، ويغرس الاشجار في الفناء، حتى تعوض المرأة ما كانت تفقده بعزلتها عن الحياة الخارجية، فتجد في الداخل ما ينفث عنها، ويسري عن همومها. وكانت تقضي اغلب أوقاتها في صحن البيت الذي يدخل منه الضوء والهواء، بحيث لا تراها العين، أو تنظر الى الخارج من خلال شرجب او شمسية او قمرية حسب تعبير اهل المغرب والاندلس أو مشربية حسب التعبير المصري وهي غرفة علوية مطلة على الشارع لا تفتح فيها من هذه الناحية إلّا نافذة صغيرة مشرجبة، يمكن ان تجلس المرأة أمامها فتأنس برؤية الرائحين والغادين دون ان يراها احد. وما زالت الشراجب او المشربيات قائمة حتى يومنا هذا في البيوت القاهرية والخانات وفي الكنائس القديمة بمصر العتيقة، كما نشاهدها في بيت السحيمي، وبيت الكريدلية، وخان الزراكشة، وتحتفظ مدينة رشيد بعدد كبير منها. كذلك تحتفظ دور مدينة طرابلس الشام ببعض امثلة من هذه المشربيات وتعرف باسم العلية.

وكانت ابواب البيوت الواقعة في شارع واحد غير متقابلة حتى لا يستطيع الجار ان يكشف عورة جاره، كما كان مدخلها يؤدي الى أسطوان، يتخذ غالباً شكل مرفق، حتى يحجب الجزء الداخلي من البيت عن السابلة.

ولكي نعطى عن الحياة الاجتماعية في المدن الاسلامية في العصر الوسيط صورة دقيقة ينبغي ان نتكلم هنا عن إحدى المؤسسات الهامة في المدينة الاسلامية، وهو الحمام. وكانت كثرة الحمامات وتعددها في المدن الاسلامية إحدى الظواهر البارزة في المجتمع الاسلامي، فان المكانة التي يحتلها الحمام تلي مكانة الدار.

وكانت عادة الاستحمام من العادات المتأصلة بعمق في الاسلام للطهارة والنظافة ، ودليل ذلك أنه ما كادت شمس الاسلام تغرب من الاندلس حتى بطلت عادة الاستحمام في البلاد التي أصابها الاسترداد، واصبحت هذه العادة وقفاً على المناسبات الهامة، وكان الحمام هو المكان الذي يستشعر فيه المرء بهجة الحياة. لان الاستحمام يولد في النفس احساساً بالراحة، ويحدث فيها شعوراً بانتعاش بدني وروحي. وكان من اسباب تعلق الناس بهذه العادة بالاضافة الى الشعور النفسي الذي يحدثه بخار الماء وما يتبعه من تدليك . ان الحمام كان مركزاً للاجتماعات المرحة ومجالس الانس واللهو والغناء ، ثم ان النساء كن يجدن فيه فرصة للتسرية عنهن ، والتمتع بحرية نسبية فيحطمن فيه ، ولو خلال دقائق معدودة ، اغلال التقاليد المتزمتة . وكان للاستحمام بالاضافة الى كل ما سبق ذكره غرض ديني ، إذ أنه يطهر جسد المرء تطهيراً تاماً ، ولعل ذلك هو السبب الذي من اجله يغسل المسلمون جثث موتاهم قبل مواراتها التراب ، لأن جسم الانسان معرض دائماً لكل ما يفسد الطهارة ، والماء يطهر الجسم ، ويزيل ما علق به مما ينقض الطهارة . وكانت الحمامات لهذا السبب تكثر بالقرب من المساجد الجامعة حتى يتيسر للمسلمين الاستحمام والتطهير قبل الدخول الى بيت الصلاة . وكانت الحمامات المغربية تتألف عادة من ثلاث غرف اساسية هي « بيت المستراح » ، وهي غرفة خاصة بالراحة وخلع الثياب وارتداء السراويل او الأزر، ثم «بيت البارد» ، وهي قاعة تزيد درجة حرارتها قليلاً عن حرارة الغرفة السابقة، ثم « بيت الساخن »، وفيها تبلغ درجة الحرارة اقصاها . وتقام بجوانبها احواض تصب الصنابير فيها مياه ساخنة وباردة. وكانت القاعات والمخادع تتخذ في المغرب شكلاً مربعاً او مستطيلاً بينما كانت الحمامات في المشرق تتألف من غرف تتوزع حول مركز واحد .

ونختتم هذا الفصل بالحديث عن الاطار الخارجي للمدينة الاسلامية ونعني به الاسوار. كانت المدن الاسلامية تحاط دائماً - شأنها في ذلك شأن المدن الرومانية - بأسوار قوية تقيها مطامع الاعداء ، وكانت هذه الاسوار في المشرق تتبع النظام الروماني او الفارسي وفقاً لتقاليد البلاد نفسها، ولكنها تتفق جميعاً في انها منظمة

معتدلة، بينما هي تتعرج وتنثني في المغرب والاندلس. و الواقع ان هذا التعرج من شأنه ان يزيد من مناعة المدينة، ويحكم دفاعها، فتصبح مثلها في أسوارها الداخلية والخارجية مثل زنبرك ، اذا ضغط عليه وترك بعد ذلك انطلق بشدة وقوة واصاب ما يقابله . ويتصل بالسور الاسلامي عادة ابراج مربعة او مثمنة او مستديرة تدعمه وتزيد من مناعة الدفاع . وكان النظام السوري الروماني هو السائد في التحصينات المصرية والشامية ، بينما كان للصراع الطويل في الاندلس بين المسيحية والاسلام اثر كبير في تحسين وسائل الدفاع الاسلامي ، فابتكر الموحدون نوعاً جديداً من الابراج ، سموه الابراج البرانية ، وهي ابراج تقع خارج السور وترتبط به بواسطة ستارة من البناء تعرف في المغرب والاندلس باسم قورجة[1] « Coracha »، وظيفتها غلق الطريق امام الاعداء في اضعف اجزاء السور[2] . ويلاحظ ان اسوار المدن القديمة التي افتتحها العرب كانت تتخذ عادة شكلاً مستطيلاً تنفتح في جوانبه اربعة ابواب كما هو الحال في سرقسطة باسبانيا والاسكندريه . غير ان عدد هذه الابواب ازداد في العصر الاسلامي لضرورة الربط بين المدينة وأرباضها ، ففتحت في الاسوار ابواب جديدة ، سميت اما باسماء المواضع المجاورة للابواب ، أو بأسماء بعض الاشخاص ، مثل باب القنطرة وباب سعادة ، في اسوار القاهرة، وباب عبدالجبار وباب عامر في اسوار قرطبة، وباب البحر وباب سدرة في سور الاسكندرية ، وباب البصرة وباب الكوفة في اسوار بغداد ... الخ .

وكانت المدينة الاسلامية المسوّرة تضم احياء متجاورة تسمى الحومات او الحارات او الخطط، وكانت كل واحدة منها تتسمى باسم اكبر اسرة تعيش فيها،

---

١ – Robert Ricard : Couraça et Coracha, Al - Andalus, vol XIX, Fasc. 1, 1954, PP. 149 - 172 -
Robert Ricard : Complément sur la Coracha, Al - Andalus, vol. XX, Fasc. 2, 1955, PP. 452 - 454 .

٢ – انظر مقالي : وسائل الدفاع الاسلامي في الاندلس ، مجلة الجيش عدد ٨٢ ، ١٩٥٧ ص ٢٤ .

او باسم احدى ابنيتهـا المشهورة ، او باسم السوق المنعقد فيـها [1] . اما الاحياء الخارجة عن نطاق المدينة الاسلامية فكانت تسمى بظاهر المدينة او بربضهـا ، وكثيراً ما كانت هذه الارباض تدخل في نطاق المدينة بعد اتساعها ، وتصبح بدورها أحياء تحوطها أسوار خارجية .

السيد عبد العزيز سالم

بيروت في ٢٤ رمضان ١٣٨٣
(٧ شباط ١٩٦٤)

---

١ – انظر مقالي : التخطيط ومظاهر العمران في العصور الاسلامية الوسطى ، المجلة عدد ٩ ، ١٩٥٧ ص ٥٤ – ٦٣ .

تخطيط مدينة الإسكندرية
وعمرانها في العصر الإسلامي

مقدمة الكتاب

تستحق مدينة الاسكندرية ، اعظم مراكز الحضارة في العالم في العصر البطلمي، واولى مدن مصر البطلمية ، والرومانية ، والبيزنطية ، والعاصمة الثانية لمصر منذ الفتح العربي حتى وقتنا الحاضر ، والثغر الاعظم في جمهوريتنا الفتية ، إن لم يكن في حوض البحر الابيض المتوسط كله ، تستحق هذه المدينة الخالدة من اهتمام المؤرخين ما يتناسب ودورها الطليعي في تاريخ الحضارة العالمية . انني لا انكر الجهود الكبيرة التي بذلها الباحثون وعلماء التاريخ في دراسة تاريخ هذه المدينة ، بأبحاثهم وتواليفهم القيمة التي خصوها بها ، الا ان ما كتب عن الاسكندرية في العصر الاسلامي ، اي منذ الفتح العربي حتى الفتح العثماني ، يكاد يعد على أصابع اليد ، ولا يتعادل بأي حال من الاحوال مع المباحث التي تناولت تاريخ الاسكندرية في العصور القديمة والحديثة ، وفي ذلك اجحاف بأهمية هذه الفترة من تاريخها ، بل ان جمهرة من الباحثين في تاريخ الاسكندرية ، يمرون على هذا العصر مراً سريعاً ، ويعتبرونه عصر تأخر واضمحلال بالنسبة لتاريخ هذه المدينة ، وعصر انحطاط وانتكاس لحضارتها . ولو ان هؤلاء الباحثين تعللوا في اهمالهم للعصر الاسلامي بغموض هذه الفترة من تاريخها ، او بصعوبة الكتابة فيها لقلة المصادر التاريخية وندرتها لهان الامر ، اما ان يعتبروا هذا العصر عصر اضمحلال وتدهور فافتراء ظالم، وانكار للواقع . حقيقة لقد فقدت الاسكندرية كثيراً من عظمتها بعد تخطيط مدينة الفسطاط واتخاذها عاصمة لمصر الاسلامية ،

وهو أمر طبيعي ناتج من تركيز السلطات في الحاضرة ، ولكن ذلك لا يعني انها اضمحلت في العصر الاسلامي الى حد ان تصبح في عداد القرى . وحقيقة أنها لم تعد المدينة الاولى في مصر، وحقيقة أنها اضمحلت نسبياً عما كانت عليه في العصر البطلمي والروماني ، وذلك خلال القرون الثلاثة الاولى للهجرة ، ولكن هذا الاضمحلال النسبي لم ينشأ من عزلتها عن الحياة السياسية فحسب ، بل من عوامل اخرى جغرافية واجتماعية واقتصادية لا دخل فيها للعرب بشيء . أما إتسام هذا الاضمحلال بأنه نسبي فيرجع بلا شك الى احتفاظ المدينة في هذه القرون الثلاثة بمركزها الثقافي القديم، وممارستها لنشاطها العلمي والاقتصادي والفني، وان كان هذا النشاط قد فتر كثيراً عما كان عليه في العصور السابقة للفتح العربي لعوامل سأذكرها في حينها . واذا كانت الفسطاط او القطائع او القاهرة قد اصبحت العاصمة الادارية للديار المصرية في العصر الاسلامي ، فان الاسكندرية كانت العاصمة الفعلية للبلاد، وقد وضح هذا الدور بجلاء في العصر الايوبي، وعصر دولتي المماليك البحرية والشراكسة ، اذ كانت القاعدة البحرية في مصر ، والمركز الصناعي والتجاري الأول في البلاد ، وكانت بالاضافة الى ذلك مستقر العلوم، ومقصد الفلاسفة والادباء ورجال العلم والفن طوال العصر الاسلامي، وكان معظم نزلائها من المغرب الاسلامي والاندلس ، وهذا يفسر التأثير الاندلسي المغربي الغالب على هذه المدينة .

لقد كانت الاسكندرية أجمل مدن مصر من حيث التخطيط والعمران، ويشهد بذلك ما ذكره الرحالة العرب والمؤرخون، فقد ذكر صاحب «كتاب الاستبصار في عجائب الامصار » ان عوف بن مالك حين دخل مدينة الاسكندرية قال لأهلها : « ما أحسن مدينتكم « فقالوا له ان الاسكندر حين بناها قال : « ابني مدينة الى الله فقيرة وعن الناس غنية فبقيت بهجتها على مر الدهور »[١].

١ – الاستبصار في عجائب الامصار لكاتب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري ، نشر وتعليق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية ١٩٥٨ ص ١٠١ – ياقوت ، معجم البلدان ، المجلد الاول ص ١٨٣ ط ، بيروت ١٩٥٥ .

كذلك ذكر ان عمر بن عبد العزيز لما زار الاسكندرية أعجب بعظمتها وكثرة آثارها [1] . وذكر ياقوت عن الازهر بن معبد أنه قال : « قال لي عمر بن عبد العزيز اين تسكن من مصر ؟ قلت أسكن الفسطاط فقال أفّ أم نتن ، أين أنت من الطيبة . قلت : أيتهن هي ؟ قال : الاسكندرية » [2] .

وشاهدها الرحالة الاندلسي ابن جبير ، فأعجبه حسن تخطيطها واتساع عمرانها ، وعبر عن هذا الاعجاب بقوله : « فأول ذلك حسن وضع البلد واتساع مبانيه ،حتى انّا ما شاهدنا بلداً أوسع مسالك منه ،ولا أعلى مبنى ،ولا اعتق ،ولا احفل منه ... » [3] . كذلك شاهدها صاحب كتاب الاستبصار ووصفها بقوله : «والاسكندرية تعجب كل من رآها لبهجتها ، وحسن منظرها ، وارتفاع مبانيها واتقانها ، وسعة شوارعها وطرقاتها ، وهي برية بحرية ، وفيها من النعم والارزاق والفواكه ما ليس ببلد مع طيب هوائها وتربتها » [4] .

كل ذلك يدل دلالة واضحة على ان الاسكندرية كانت تشغل مكانة سامية بين حواضر مصر الاسلامية ، بل كانت على حد قول صاحب الاستبصار «اعظم مدن مصر » [5] ، وهي استناداً الى قول الرحالة ابن بطوطة : « الثغر المحروس ، والقطر المأنوس ، العجيبة الشأن ، الاصيلة البنيان » [6] .

لقد قصدت من الاتيان بهذه الشواهد التاريخية ان ارد على المزاعم والافتراءات التي قيلت في حق الاسكندرية الاسلامية ، ومع ذلك فإن ما ظهر من الابحاث التاريخية عنها في الثلاثين سنة الاخيرة ، رغم قلته ، قد رد الى ثغرنا المحروس

---

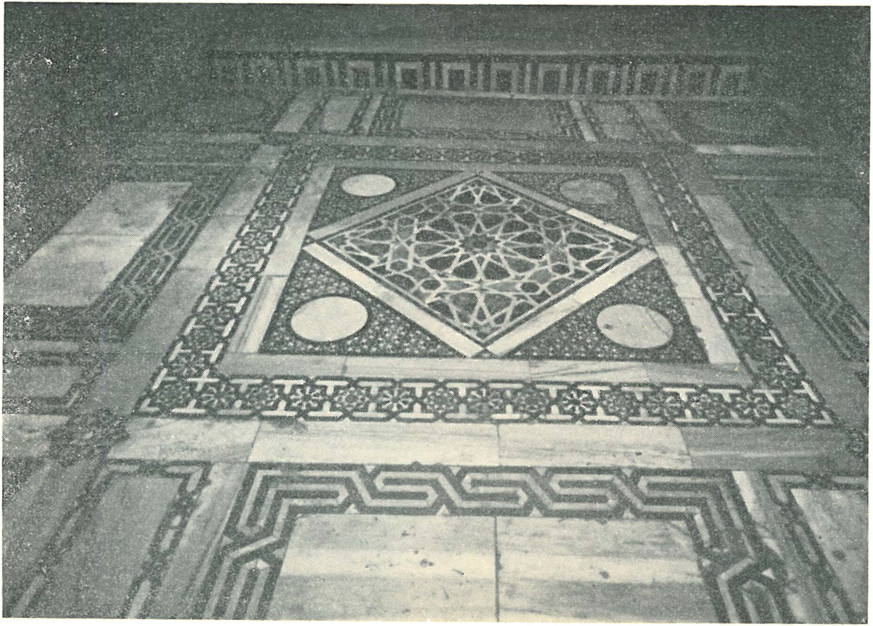
١ — الاستبصار ص ١٠١ .
٢ — ياقوت ، معجم البلدان ص ١٨٤ .
٣ — ابن جبير ، الرحلة ، نشره وليم رايت ، لندن ١٩٠٧ ص ٤٠ .
٤ — الاستبصار ص ١٠٠ .
٥ — نفس المرجع ص ١٠٢ .
٦ — ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، القاهرة ١٣٢٢ هـ ، ج ١ ص ٩ و ١٠ .

عزته وكرامته، ونبّه انظار الباحثين الى ضرورة توجيه مزيد من العناية بتاريخه الاسلامي .

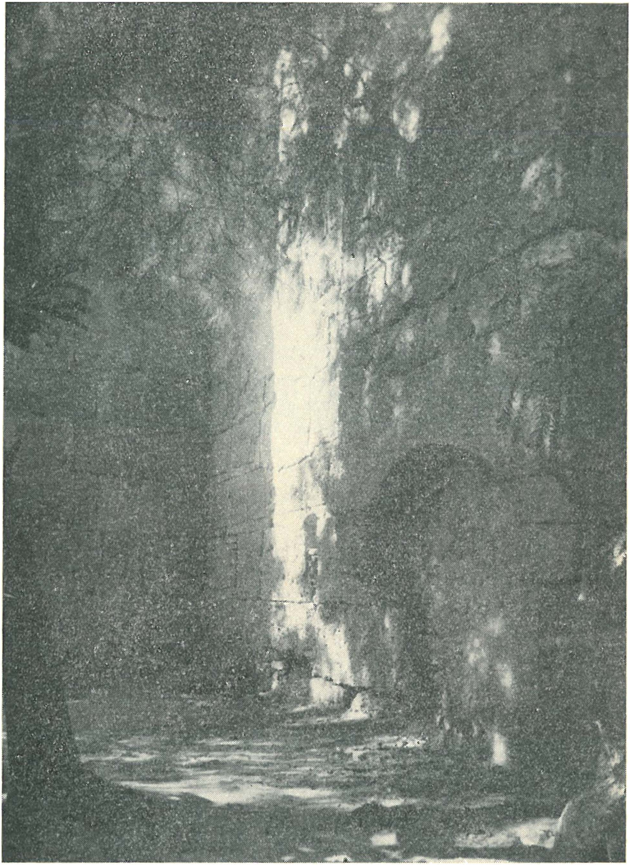
ويرجع الفضل الاعظم في توضيح الدور التاريخي العام الذي لعبته الاسكندرية في عصرها الاسلامي الى بحثين جليلين قام بهما المؤرخ العربي الكبير الاستاذ الدكتور جمال الدين الشيّال ، استاذ التاريخ الاسلامي بكلية الآداب، جامعة الاسكندرية، كما يرجع اليه الفضل في ادخال مادة «تاريخ الاسكندرية في العصر الاسلامي » بين مناهج الدراسة بالكلية . وقد ظهر البحث الاول بعنوان « الاسكندرية في العصرين الايوبي والمملوكي » في الكتاب الذي اصدرته غرفة الاسكندرية التجارية عن مدينة الاسكندرية سنة ١٩٤٩ . والبحث الثاني دراسة مستفيضة قيمة عن تاريخ المدينة من اقدم العصور حتى العصر الحاضر مع العناية بالعصر الاسلامي [١] . والبحث شيق للغاية نشره الاستاذ الدكتور في المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثاني الصادر في اكتوبر ١٩٤٩ ، ويعتبر هذان البحثان اهم ما كتب في تاريخ الاسكندرية الاسلامية. ولا ينبغي ان نجحد فضل احد كبار الاساتذة المستشرقين وهو الأستاذ اتيان كومب E. Combe ، فقد قام بأبحاث تاريخية وأثرية هامة في تاريخ الاسكندرية الاسلامية وخاصة في عصر دولة المماليك البحرية ، كما نشر منتخبات من « كتاب الالمام بالاعلام » للنويري، وهو مخطوط محفوظ بمكتبة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، نشرها في مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، في العدد الثالث الصادر في سنة ١٩٤٦ . وهناك مقالات اخرى هامة لأساتذة مصريين اجلاء، منها مقال للاستاذ الدكتور محمد عبد الهادي شعيرة ، استاذ التاريخ الاسلامي بجامعة عين شمس ، عن الاسكندرية منذ الفتح العربي الى نهاية العصر الفاطمي ، نشره في العدد الذي اصدرته غرفة الاسكندرية التجارية سنة ١٩٤٩ ، ومنها مقال عن الاسكندرية الاسلامية

---

١ - تبلغ عدد صفحات هذا القسم الاسلامي ٣٥ صفحة من مجموع صفحات البحث التي يبلغ عددها ٦٨ صفحة .



مسجد قاتيباي



البرج الروماني

للاستاذ حسن عبد الوهاب، كبير مفتشي الآثار العربية سابقاً، في مجلة الكتاب، في العدد الصادر في يناير سنة ١٩٤٧ . هذا بالاضافة الى الدراسات الاثرية التي قام بها الاستاذ الدكتور محمد عبدالعزيز مرزوق، استاذ الفنون الاسلامية بجامعة القاهرة، واهمها بحث بالانجليزية عن الاسكندرية كمركز لصناعة النسيج من سنة ٣٣١ ق.م الى ١٥١٧ م ، بمجلة جمعية الآثار القبطية ، المجلد ١٣ ، ومقاله عن الخزف المصري المعروف بالجرافياتو (من حفائر كوم الدكة في الاسكندرية) ، نشره بمجلة كلية الآداب المجلد ١٣ سنة ١٩٥٩ . ونضيف الى الابحاث السابقة الرسالة القيمة التي تقدم بها الزميل الأستاذ الدكتور محمد توفيق بلبع للحصول على درجة الماجستير سنة ١٩٥٥ ، وموضوعها قلعة قايتباي بالاسكندرية ، وكتابي عن تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي ، الصادر في ١٩٦١ ، واخيراً المقال القيم الذي كتبه الاستاذ الدكتور سعد زغلول عبدالحميد، استاذ التاريخ الاسلامي المساعد بجامعة الاسكندرية ، عن الاسكندرية منذ الفتح الاسلامي الى بداية العصر الفاطمي ، وهو مقال طويل ضمنه السيد المؤلف كثيراً من آرائه الأصيلة ، وتتمته مقالي عن الاسكندرية منذ العصر الفاطمي حتى الفتح العثماني ، وقد نشر كلاهما في الكتاب الذي اصدرته محافظة الاسكندرية في عيد الثورة الحادي عشر ، بعنوان تاريخ الاسكندرية وحضارتها منذ اقدم العصور .

هذه هي كل الابحاث التي تناولت تاريخ الاسكندرية في العصر الاسلامي ، وهكذا نرى ان هذا التاريخ لم ينل حقه من الدراسة الوافية الشاملة ، وما زال هذا التاريخ يحتاج في جزئياته الى دراسات اخرى واسعة ، ونلاحظ ان هذه الدراسات السابقة لم تتعرض لتخطيط المدينة وعمرانها في هذا العصر بما فيه الكفاية، وهي ظاهرة نلاحظها حتى في كل ما كتب عن المدن المصرية بل الاسلامية بوجه عام. لذلك حرصت في هذا البحث القصير على الاحاطة بالتخطيط والعمران السكندري في العصر الاسلامي ، حتى يتيسر للباحث في تاريخ المدينة ، الالمام بالتطورات التي طرأت على نظام المدينة التخطيطي والعمراني منذ تأسيسها . ولا يخفى على الباحثين في التاريخ ما لهذه الدراسة من اهمية بالنسبة لطبوغرافية المدينة

وتطورها ، فبفضلها يمكننا تحديد اتساع العمران ، واتجاهات نموه في العصر الحديث ، وبفضلها ايضاً يمكننا معرفة اصول الاحياء القديمة التي تضمها المدينة ، لان بعض الاحياء الحاليّة ما يزال يحمل اسماءه القديمة ، كما ان دراسة العمران السكندري في العصر الاسلامي ستعيننا كثيراً على تحديد المعالم التي اندثرت او التي ظلت تحتفظ بأسمائها .

ارجو ان اكون قد وفقت في عرض الموضوع وتوضيح ما خفي من جوانبه والله ولي التوفيق ؟

الاسكندرية في ٢٦ يوليو ١٩٦٣

السيد عبد العزيز سالم

الفصل الأول

تخطيط الإسكندرية القديم

في خريف سنة ٣٣٢ ق. م. كانت قوات الاسكندر الاكبر تدخل في اراضي مصر بعد ان تم لهـا الاستيلاء على مدن الساحل الشرقي للبحر الابيض المتوسط، ولم تستطع قوات مـازاكيس الوالي الفارسي على مصر ان تقف امام جيوش الاسكندر ، فاستسلمت لها دون قتال [١] .

ولم يكن الاسكندر الاكبر يهدف من فتح مصر، تمكين فتوحاته في آسيـا الصغرى والساحل السوري فحسب ، بل كان يرمي الى تأسيس مركز للحضارة الهلينية فيهـا ، يحقق له غايته من نشر واشعـاع هذه الحضارة في بـلاد الشرق القديم [٢] ، وقاعدة بحرية تهيىء له السيطرة الفعلية للساحل الشرقي للبحر الابيض المتوسط ، خـاصة بعد ان تهدمت ميناء صور [٣] ، وتكون في نفس الوقت ثغراً مقدونياً يخلف صور في العـالم التجاري ، وهو امر يستحق الاعتبار ، لأن مصر لم تكن لها موانىء جديرة بها على شواطىء البحر المتوسط [٤] .

---

١ – آيدرس بل ، مصر من الاسكندر الاكبر حتى الفتح العربي ، ترجمة الدكتور محمد عواد حسين والدكتور عبداللطيف احمد علي ، القاهرة ١٩٥٤ ص ٦٠ – محمد عواد حسين ، مقدمة لتاريخ الاسكندرية منذ اقدم العصور ، محافظة الاسكندرية ، ١٩٦٣ ص ١١ .

٢ – ابراهيم نصحي ، تاريخ مصر في عصر البطالمة ، ج ١ ، القاهرة ١٩٤٦ ص ١٣ – زكي علي ، الاسكندرية في عصر البطالمة والرومان ، مقـال في الكتـاب الذي قدمتـه غرفة الاسكندرية التجارية في المعرض الزراعي الصناعي لعام ١٩٤٩ ص ٣٥ .

٣ – محمد عواد حسين ، مقال عن تخطيط المدينة في كتاب محافظة الاسكندرية ص ١٣ .

٤ – ابراهيم نصحي ، تاريخ مصر ، ج ١ ص ١٣ – عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية ص ٩ .

وقد وفق الاسكندر الاكبر في اختياره لموضع هذه المدينة الجديدة التي سماها باسمه كل التوفيق، فقد كان هذا الموضع يتمتع بمزايا جغرافيـة عديدة لم تخف على رجل في مثل ذكاء الاسكنـدر وألمعيته ، فاجتذبت اهتمامه ، ولفتت انتباهه ، وحفزته على اختيار هذا الموضع بالذات لتأسيس مدينته المرتقبة ، على الرغم من ان هذا الموضع لم يكن يزيد عن كونه قرية ساحلية ، يسكنها جماعة من صيادي الاسماك ، تعرف باسم راكوتيس (او راقودة عند مؤرخي العرب)، وان كان في ذات الوقت قاعدة لاحدى الحاميات المصرية ،تقيم فيه بصفة دائمة، لصد الاجانب وردهم عن وادي النيل [1] . ولكن الاسكندر أدرك اهميـة هذا الموضع ، بمجرد عبوره منه في طريقه الى واحة سيوة ، فقد كان لا يتعرض بفضل وقوعـه غربي مصب فرع النيل الغربي المعروف بالكانوبي ، للرواسب النهرية التي يحملها النيل الى البحر ، والتي تدفعها التيارات البحرية الى الشرق ، هذا بالاضافة إلى أن هذا الموضع الذي يطل على بحر ايجه ، يجعل الاتصـال بين مدينته المستقبلة ، والعالم الاغريقي ، أمراً سهلاً ميسوراً . ولعـل الاسكندر أدرك الفـائدة الكبرى التي تعود على المدينة الجديدة من وقوع بحيرة مريوط الى جنوبهـا ، ومن مواجهتهـا لجزيرة فاروس التي تقع في شمالها . فبحيرة مريوط كانت منذ أقدم العصور بحيرة عذبة ، تصل إليها مياه النيل عن طريق عدة قنوات تتفرع من ترعـة شيديا ، المتفرعة من الفرع الكانوبي، وكانت هذه البحيرة في العصر البطلمي أعظم اتساعاً منها اليوم ، إذ كانت تسير فيهـا السفن القادمـة في النيل من الجنوب ، وكانت للاسكندرية ميناء جنوبية تطل على هذه البحيرة كشفت الابحاث الأثرية عن بعض آثار أرصفتها، ثم حدث ان طمرت القنوات التي كانت تمد البحيرة بمياه النيل بالرواسب الطينية ، فانقطعت المياه العذبة عن البحيرة ، وأخذت تفقد مياههـا بالبخر، ثم تحولت بمرور الزمن الى بحيرة ملحة [2] . ويسمي المقريزي هذه الترعة

---

١ ـ محمد عواد حسين ، تخطيط المدينة ، من المرجع السابق ص ١٤ .
٢ ـ محمد صبحي عبد الحكيم ، مدينة الاسكندرية ، القاهرة ١٩٥٨ ص ٢٥ .

باسم خليج الحافر [1]، وهي نفس ترعة شيديا القديمة .

أما جزيرة فاروس التي كانت تستخدم منذ عهد رمسيس الثاني كميناء حربي قديم يحمي مصر من غارات سكان البحار [2]، فقد كان من الممكن، بحكم مواجهتها للمدينة، أن تتخذ حاجزاً طبيعياً ، يحمي الاسكندرية من أنواء البحر وعواصفه، وقد عرف بطليموس سوتر كيف يفيد من ربط هذه الجزيرة بمدينة الاسكندرية بواسطة الرصيف او الجسر المعروف بالهبتاستاديوم ، فيجعل للاسكندرية على هذا النحو ميناءين : ميناء شرقية وميناء غربية .

اما فيما يختص بتزويد المدينة الجديدة بالمياه العذبــة فلم يكن مشكلة على كل حال ، اذ كانت هذه المياه تصل بالفعل عن طريق ترعة شيديا، التي كانت تتفرع من الفرع الكانوبي الى ترعتين : شرقية وغربيــة . فالشرقية كانت تسير بحذاء الشاطىء الى كانوب ، بينما كانت الاخرى تدور جنوبي راكوتيس ، ثم تصب في البحر ، في القسم الغربي من ميناءهــا الذي عرف فيما بعد باسم « العود الحميد » Eunostos ، وان كان برشيا Breccia يعتقد ان هذه الترعــة كانت تصب في الميناء الشرقية [3] وكانت تتفرع من هذه الترعــة قنوات اخرى صغيرة ردمت فيما بعد عند بناء الاسكندرية [4] ، واقيمت بدلاً عنها شبكة من الصهاريج ، لحفظ المياه من التسرب في باطن الارض، وكانت هذه الصهاريج تتصــل بقنوات ممتدة في جوف الارض ومتصلة بترعة شيديا. وقد بلغ عدد ما عثر عليه من هذه الصهاريج وفقاً لما ذكره محمود باشا الفلكي سبعمائة ، بعضها يتألف من طابقين ، وقد تصل

---

١ – المقريزي ، الخطط ، المجلد الاول ، طبعة بيروت ص ٢٩٧ .

٢ – Gaston Jondet, les ports submergés de l'ancienne île de Pharos, M. I. E. vol. IX, le Caire, 1916 .
زكي علي ، الاسكندرية في عهد البطالمة والرومان ص ٣٤ – عبـد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية ص ١٠ – محمـد عواد حسين ، تخطيط الاسكندرية منـذ اقـدم العصور ص ١٤ ، ١٥ .

٣ – Breccia, Alexandria ad Aegyptum, Bergamo, 1922, P. 78 .

٤ – محمد عواد حسين ، تخطيط الاسكندرية ص ١٨ .

الى أربعـة طوابق ، ولم تكن جميعها تملؤ من القنوات وانما كان أكثرهـا يملؤ بالقرب [1] ، وقد وجد من هذه الصهـاريج اكثر من ٣٠٠ صهريجـاً صالحـاً للاستعمال في عهد محمد علي باشا [2] . وقد تبقى اليوم من هذه الصهاريج اربعة : اثنان منها يمكن مشاهدتها ، أحدهمـا صهريج الشلالات ، والآخر صهريج النبي دانيال [3] .

كان الاسكندر الاكبر يهدف الى بناء مدينة يخضع تخطيطها للنظـام اليوناني الاصيل ، لتكون مصدراً لاشعاع الحضارة الهلينية في الشرق ، ولذلك عهد الى مهندسه دينوكراتيس بتخطيط هـذه المدينة ، بينما تولى كليومينيس النقراطيسي مهمة الاشراف على اعمال البناء ، وهـذا في حد ذاته يفسر السبب الذي من اجله اطلق عليهـا الاغريـق والرومان اسم « الاسكندرية المجـاورة لمصر » ، Alexandria ad Aegyptum اذ لم تكن تعتبر في نظر هؤلاء جزءاً من مصر [4] .

وقد حرص دينوكراتيس على ان يكون تخطيط الاسكندرية على غرار نظام التخطيط الاغريقي الذي ابتدعه هيبوداموس الميليطي وطبّق في تخطيط المدن اليونانية منذ القرن الخامس ق. م. ، مثل هاليكارناسوس وبيرايوس ورودس [5] . وقوام هذا النظام التخطيطي تقسيم المدينة الى شوارع مستقيمة تمتد من الشرق الى الغرب ومن الشمال الى الجنوب ، بحيث تتقاطع في زوايا قائمة ، وتؤلف ما يشبه

---

١ – محمد مسعود ، المنحة الدهرية في تخطيط مدينـة الاسكندرية ، الاسكندرية ١٣٠٨ هـ ص ١٢١ ، ١٢٢ .

٢ – نفس المرجع ص ١٢٢ .

٣ – فوزي الفخراني، مقال بكتاب تاريخ الاسكندرية منذ اقدم العصور ص ١٧٣، ١٧٧.

٤ – Aymard (A.) les civilisations de l'homme dans le Proche - Orient, dans: L'Orient et la Grèce antique, P. 452, Paris 1955 .

٥ – Breccia, op. cit. P. 67, 68 .

رقعة الشطرنج [1] ، ويتوسط هذه الرقعة شارعان رئيسيان ، يتقاطعان فيما بينهما على شكل صليب ، وينتهيان في الجهات الاربعة باربعة ابواب . وعلى هذا النحو كان نطاق مدينة الاسكندرية يتخذ شكل مستطيل ، يمتد طوله من الشرق الى الغرب بامتداد الساحل، وكان يحيط بالمدينة سور حجري ضخم مزود بالأبراج الحصينة ، محيطه يتراوح ما بين عشرة ك . م ، و ١٥ ك . م . وقد شرع في بناء هذا السور في حياة الاسكندر ، وتم في ايام بطليموس الاول [2] ، وجدد عدة مرات في العصر الروماني ، وقد تبقى من هذا السور آثار برج نصف دائري بحدائق الشلالات متصل بستارة السور الاساسية ، وتتميز الاحجار الرومانية في أدنى هذا البرج بكبر احجامها، وبتسنمها اي بروزها، على النحو الشائع في العمارة الرومانية . وذكر المؤرخ الروماني اميانوس ماركيلينوس ، ان دينوكراتيس ، خطط معالم هذا السور بالدقيق لافتقاره الى الجص الذي لم يتهيأ الحصول عليه في تلك الآونة [3] .

وكانت تتخلل المدينة شبكة من الشوارع المستقيمة المرصوفة بالبازلت تتقاطع فيما بينها ، سبعة تمتد طولاً في موازاة الساحل ، واثني عشر شارعاً تقطعها عرضاً

---

١ - ابراهيم نصحي، تاريخ مصر في عصر البطالمة ج ١ ص ٣٢٤ - زكي علي ، الاسكندرية في عهد البطالمة والرومان ص ٤٢ -
Aymard (A.), les civilsations de l'homme, op. cit. P. 489 -
محمد عواد حسين ، تخطيط الاسكندرية ص ١٥ .

٢ - ذكر الاستاذ الدكتور محمد عواد حسين نقلاً عن المؤرخ الروماني تاكيتوس ان بطليموس الاول هو الذي شيّد هذا السور ، وانه كان منيعاً بحيث ان انطيوخوس الرابع ملك سوريا عجز عن اقتحامه عندما حاول غزو مصر في عامي ١٧٠، ١٦٨ ق.م. كما وقف امامه دقلديانوس ثمانية أشهر بين عامي ٢٩٥ ، ٢٩٦ م. عندما أراد دخول المدينة عقب قيامها بالثورة عليه (راجع مقال الدكتور محمد عواد حسين في كتاب محافظة الاسكندرية ص ١٧) .

٣ - اميانوس ماركيلينوس ، مصر في القرن الرابع ، ترجمة الاستاذ وهيب كامل ، ص ٨٢ - محمد مسعود ، المنحة الدهرية ص ١٢ .

من الشمال الى الجنوب . وكان يخترق وسط المدينة بطولها من الشرق الى الغرب وبعرضها من الشمال الى الجنوب شارعان رئيسيان هما ما يعرفان باللاتينية بالديكومانوس Decumanus والكاردوماكسيموس Cardo Maximus [1]، ويعرف الشارع الرئيسي في المدينة في المصادر العربية بالمحجة العظمى [2] . وكان الشارع الطولي الممتد من شرق المدينة الى غربها يعرف بالكانوبي ، وسمي كذلك بسبب خروجه من باب كانوب الذي يسمى ايضاً بالباب الشرقي وباب الشمس ، ويتجه هذا الباب الى مدينة كانوب الواقعة شرقي الاسكندرية . وينتهي هذا الشارع غرباً بباب القمر او الباب الغربي ، وكان هذا الشارع يزدان على كل من جانبيه ببائكة ممتدة[3]. ويتفق تخطيط هذا الشارع في الوقت الحاضر تقريباً مع شارع

---

١ – Torres Balbas, Aspectos de las ciudades hispanomusulmanas, Revista del Instituto Egipcio de estudios islàmicos de Madrid, vol II, fasc. 1, 2, 1954, PP. 76-98 .
Les villes musulmanes d'Espagne et leur urbanisation, dans Annales de l'Institut d'Etudes Orientales de l'Université d'Alger, t. VI, 1942-1947, P. 5-30 .
عبد العزيز سالم ، التخطيط ومظاهر العمران في العصور الاسلامية الوسطى، مقال بالمجلة، العدد ٩ ، ١٩٥٧ ص ٥٤ – ٦٣ .

٢ – الخشني ، تاريخ قضاة قرطبة ، نشره دون خليان ريبيرا Ribera ، مدريد ١٩١٤ ص ٨٠ – الحميري ، وصف جزيرة الاندلس من كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار، القاهرة ١٩٣٧ ص ٥٦ ، ١٥٦ . وقد اشار الحميري الى النظام المتعامد لشوارع المدينة عند تعرضه لمدينة سرقسطه فقال « انها بنيت على مثل الصليب وجعل لها اربعة ابواب» . ص ٩٦ ، ٩٧ . كذلك أشار النويري الى المحجة العظمى في كتابه الالمام بالاعلام فيما جرت به الاحكام، مخطوطة رقم ١٤٤٩ ، بدار الكتب المصرية ورقة ٨٩، ١٢٩ ظ .

٣ – كان الناس يحتمون تحت هاتين البائكتين من المطر او حرارة الشمس : (انظر المسعودي، مروج الذهب مجلد ١ ص ٣٧٤ – الخطط للمقريزي ، مجلد ١ ص ٢٦٣) . ونلاحظ ان نظام الشوارع المقنطرة كان متبعاً في المدن الرومانية مثل تجاد وجميلة وأصيلا وقرطبة واشبيلية وبومبي . ونلاحظ استمرار هذا النظام في الشوارع الرئيسية للمدن الاسلامية الاولى ، فقد أسفرت الأبحاث الأثرية التي قام بها الامير موريس شهاب في قرية مجدل عنجر « عين جر » ، عن كشف مدينة اسلامية كاملة من العصر الأموي شيَّدها

ابي قير الذي يطلق عليه اليوم اسم « طريق الحرية » . اما الشارع العرضي الذي يقطع الشارع الكانوبي في وسطه تقريباً فكان يعرف باسم شارع «السما» اي المقبرة، وقد سمي كذلك لوقوع ضريح الاسكندر في نقطة التقاء هذا الشارع مع الشارع الكانوبي في الميدان الكبير المسمى بـ Meson Pedion [1]. واغلب الظن ان هذا الشارع العرضي « السما » كان يمتد في نفس امتداد شارع النبي دانيال حالياً . وكان ينفتح في سور الاسكندرية اربعة ابواب : منهـا بابان في الشرق والغرب ، عند طرفي الشارع الكانوبي ، الشرقي باب الشمس ، والغربي باب القمر . أمـا الباب الشمالي، فكان يؤدي مباشرة الى الهبتاستاديوم ، او الجسر الموصل الى جزيرة فاروس ، وقد ورد اسم هذا الباب في كتاب الاستبصار ببـاب اشتوم [2] . والباب الجنوبي كان يطل على ترعـة شيديا وبحيرة مريوط . ولكن تخطيط الاسكندرية لم يتخذ صورته النهائية الا في ايام بطليموس الاول الذي آلت اليه ولاية مصر بعد وفاة الاسكندر وفي عهد خلفه بطليموس الثاني . ففي عهدهما نما عمران الاسكندرية، واتسعت مرافقها بمختلف المنشآت والأبنية ، واستكملت المدينة تخطيطها . والى بطليموس الاول ينسب الهبتاستاديوم الموصل بين المدينة وجزيرة فاروس، والذي يقسم ميناء الاسكندرية الى الميناءين اللذين ذكرتهما من قبل ، وهو الذي مد من الطرف الشمالي لرأس لوكيـاس الشريط الصخري المتجـه نحو الغرب ، وذلـك لحماية الميناء الشرقية من أنواء البحر وعواصفه .

وكانت الاسكندرية تنقسم في العصر البطلمي الى خمسة أحياء متجاورة ، رمز لكل منها بأحد حروف الهجاء اليونانية . واهم هذه الاحياء ثلاثة هي :

١ – الحي الملكي المطل على الميناء الشرقية ، ويسمى ايضاً البروخيون. وكان

الخليفة الوليد الثاني للراحة والصيد . ويتبع تخطيط هذه المدينة النظام اليوناني الروماني، إذ يخترقها شارعان رئيسيان مقنطران، وما زالت آثار الاقواس نصف الدائرية قائمة على جانبي هذين الطريقين حتى يومنا هذا .

١ – ابراهيم نصحي ، مصر في عصر البطالمة ج ١ ص ٣٢٥ .

٢ – الاستبصار ص ٩٧ .

يضم اضخم المنشآت واجلها ، ففيه أقيمت القصور الملكيـة ، ودار الحكمـة ، والمكتبة المشهورة ، ومبنى الجمنازيوم ، وقصر العدل ، والضريح المعروف بالسيما .

٢ – يلي هذا الحي في الأهميـة الحي الوطني ، ويقع الى الجنوب الشرقي من الاسكندرية ، في الموضع الذي كانت تشغله قديماً قرية راكوتيس. وقد شيد فيه بطليموس معبد السيرابيوم لعبادة سيرابيس .

٣ – اما الحي الثالث فهو الحي اليهودي، وكان يشغل المنطقة الواقعة جنوب شرقي الحي الملكي [١]، وكان يحيط بالاسكندرية سور قوي حصين يحميها ، ويضم مناطقها العامرة ، وكانت المقابر تقع في ظاهر المدينة الى الشرق والى الغرب من سورها .

وظلت الاسكندرية في العصر الروماني محتفظة بتخطيطها القديم على الرغم مما تعرضت له من اضرار بسبب الفتن والثورات ، وقد قام الامبراطور هادريان باصلاح ما تخرب من سور الاسكندرية عند زيارته الاولى لها ، ثم أصيبت هذه الاسوار مرة ثانية فرممت في عهد الامبراطور اورليان سنة ٢٧٢ .

---

١ – لعلها الاحياء الثلاثة التي ذكرها ابن عبد الحكم بقوله : « وكانت الاسكندرية ثلاث مدن بعضها الى جنب بعض ، منة وهي موضع المنارة وما والاها ، والاسكندرية وهي موضع قصبة الاسكندرية اليوم ، ونقيطة ، وكان على كل واحـدة منهن سور ، وسور من خلف ذلك على الثلاث مدن يحيط بهن جميعاً » . انظر ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، تحقيق عبـد المنعم عامر ، القـاهرة ١٩٦١ ص ٦١ – المقريزي ، الخطط ص ٢٦٠ ، ٢٦١ – الاستبصار ص ٩١ ، ٩٢ .

الفصل الثاني

الإسكندرية عند الفتح العربي

على الرغم مما تعرضت له الاسكندرية في العصرين الروماني والبيزنطي من كوارث ونكبات ، بسبب تعدد قيام الثورات الاهلية فيها في العصر الروماني[1]، وبسبب كثرة الاضطرابات العنيفة التي شحن بها العصر البيزنطي[2]، فقد ظلت تحتفظ بمكانتها القديمة كمركز متفوق للحضارة اليونانية الرومانية ، وظلت تقوم بدورها كمدرسة فكرية وفنية لها قيمتها في هذا العصر . ويكفي دليلاً على عظمة هذه المدينة ان العرب عندما افتتحوها في اول محرم سنة ٢١ هـ (٦٤٢ م) بهرهم ما شاهدوه فيها من حسن العمارة ، وروعة التخطيط ، وكثرة الدور التي هجرها

---

١ - انتهت احدى هذه الثورات سنة ٣٨ م . بتدمير اجزاء كثيرة من الحي اليهودي (انظر مقال الدكتور مصطفى العبادي في كتاب محافظة الاسكندرية ص ٦٨) ، كما ادت الفتنة بين اليهود والاغريق في عهد تراجان الى تخريب كثير من المنشآت المعمارية في المدينة. يضاف الى ذلك ان المدينة اصيبت بأضرار فادحة في مناسبتين أخرتين : الاولى الحرب التي قامت بين الجيوش الرومانية سنة ٢٦١ مما ادى الى تدمير اجزاء كثيرة من الاسكندرية، والثانية ثورة الاسكندرية على الامبراطور دقلديانوس بسبب سياسته التعسفية ازاء المسيحيين، وقد تخربت نتيجة لذلك كثير من ابنية المدينة ، بسبب الحصار الطويل الذي ضربه الامبراطور على المدينة ، وبسبب اعمال العنف التي تبعت دخوله فيها .

٢ - نتج عن القرار الذي اتخذه الامبراطور تيودوسيوس بشأن القضاء على الوثنية وفرض الدين المسيحي على رعايا الامبراطورية قيام المسيحيين بهدم المعابد الوثنية في المدينة وتدميرها ، كذلك كان للنزاع المذهبي الذي قام حول طبيعة المسيح، وسياسة الاضطهاد التي جرى عليها الحكام البيزنطيون لرد الاقباط الى الكنيسة الكاثوليكية ، اثر عميق في اضمحلال العمران السكندري في الفترة الاخيرة من العصر البيزنطي . زد على ذلك اعمال العنف التي صحبت استيلاء الفرس على المدينة وانعكاس ذلك على العمران .

اصحابها ، فأصبحت أخائذ للفاتحين [1] ، كما اعجبهم حصانة اسوارها ، وروعة آثارها، وكثرة مرافقها، من أسواق عامرة، وحمامات كثيرة، وصهاريج متعددة[2].

لم يذهل العرب في فتوحاتهم كما ذهلوا عند فتحهم لمدينة الاسكندرية ، فقد كتب عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب ، يصف له ما فيها بقدر ما امكنه التعبير عنه ، فقال : « اما بعد ، فإني فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير اني أصبت فيها أربعة آلاف منية ، بأربعة آلاف حمام ، وأربعين ألف يهودي عليهم الجزية ، وأربعمائة ملهى للملوك » [3].

وكانت شهرة هذه المدينة قد طبقت الآفاق ، ويكفي دليلاً على ذلك ان عمر بن الخطاب لما اتاه معاوية بن حديج رسولاً من عمرو يبشره بفتحها، خرّ عمر ساجداً وقال : الحمد لله . وذكروا انه قال للمؤذن : « أذن في الناس ، الصلاة جامعة » فلما اجتمع الناس اخبرهم بفتح الاسكندرية [4].

وليس غريباً ان ينال فتح الاسكندرية هذه الاهمية، وليس عجيباً ان يذهل العرب عند مشاهدتهم آثارها الجليلة ، فمنارة الاسكندرية كانت تعتبر احدى عجائب الدنيا السبع في العالم القديم بينما اعتبرها احد مؤرخي العرب في عصر المماليك لاحدى عجائب ثلاث : « منارة الاسكندرية وجامع بني امية وحمام

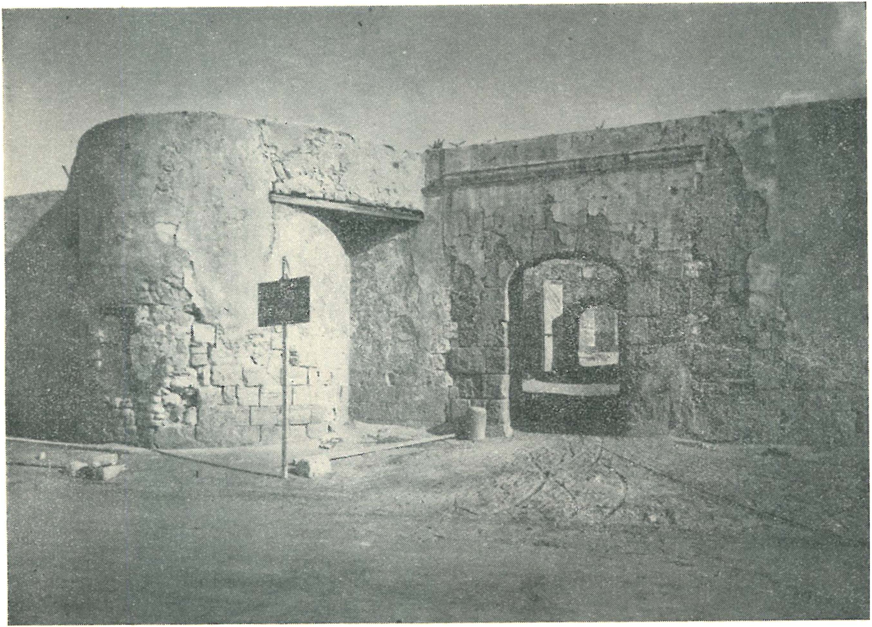
---

١ – يقول ابن عبد الحكم « واما الاسكندرية فلم يكن بها خطط ... وانما كانت اخائذ ، من اخذ منزلاً نزل فيه هو وبنو ابيه » فتوح مصر والمغرب ص ١٧٧ .

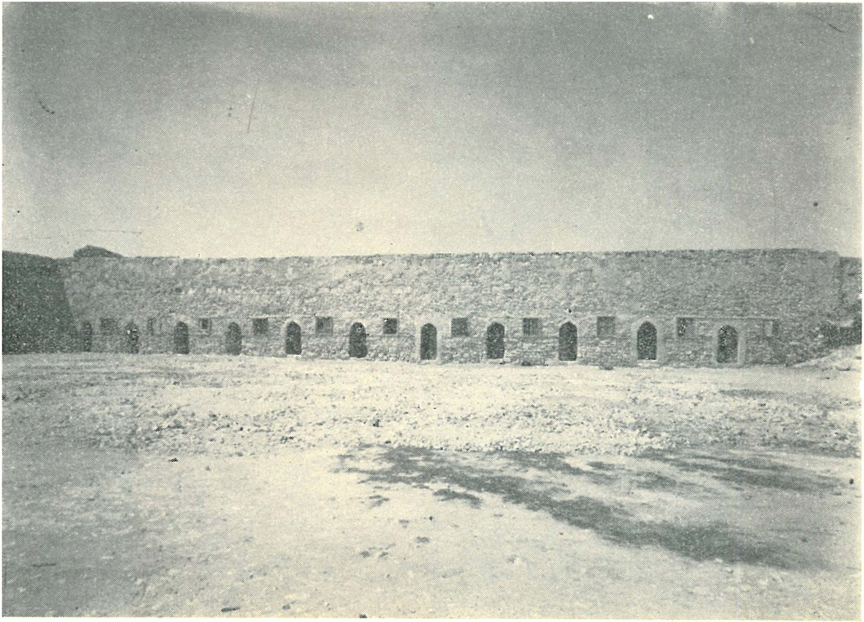
٢ – ذكر مؤرخو العرب ان عمرو بن العاص لما افتتح الاسكندرية وجد فيها اثنى عشر الف بقال (ابن عبد الحكم ص ١٢١ – ابن دقماق ج ٥ ص ١٢٥ – المقريزي، الخطط مجلد ص ٢٩١ – السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٥٤) كما ذكروا ان حماماتها التي أحصيت بلغت اثني عشر ديماساً ، اصغر ديماس منها يسع الف مجلس ، وكل مجلس يسع عدة اشخاص (ابن عبد الحكم ص ١٢١ – المقريزي ص ٢٩١) .

٣ – ابن عبدالحكم، فتوح مصر ص ١٢١ – ياقوت، المعجم، مجلد ١ ص ١٨١ – المقريزي، الخطط ، مجلد ١ ص ٢٩١ .

٤ – ابن عبدالحكم ، فتوح مصر ص ١١٩ ، ١٢٠ .



الطابية



حوش الطابية

طبريــة »[1] ، لذلك حظيت بنصيب وافر من وصف المؤرخــين ورحالة العرب والاعــاجم على السواء [2] ، وعمود دقلديانوس الذي عرف خطئاً باسم « عــامود بومبي » كان موضع اعجاب الرحــالة العرب فأفاضوا في وصفه ، واسبغوا عليه كثيراً من القصص ، وسموه « عمود السواري » لضخامته ، وارتفاعه الهائل بين الاعمدة الاخرى التي كانت تحيط به في معبد السيرابيوم (او القصر حسب تسمية الرحالة والمؤرخين العرب) [3]، ثم اطلقوا على باب المدينة الجنوبي اسم باب العمود نسبة الى هذا العمود ، وما زال اسم العمود يطلق في وقتنا الحاضر على الجبانــة الواقعــة خــارج باب العمود او باب السدرة من ابواب الاسكندرية الاسلامية. ويضاف الى هذين الاثرين آثار أخرى جليلة كانت تزهو بها الاسكندرية كالمكتبة المشهورة ، والملعب والمسلتين . كذلك كان تخطيط الاسكندرية الرائع عاملاً من العوامل التي اثارت اعجاب الفــاتحين ، فشوارعهــا المستقيمة التي تتقاطع عمودياً فيما يشبه رقعة الشطرنج [4] ، وكانت مقنطرة اى تكتنفها البوائك من الجانبين ، وميادينها كانت واسعة تزدان بالتماثيل والاعمدة، وصهاريجهــا الجوفية كانت فسيحة بحيث «يسير تحتها الفارس وبيده رمح لا يضيق به حتى يدور جميع تلك

---

١ – غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، نشره رافيس ، باريس ١٨٩٤ ص ٤٥ .

٢ – انظر وصف هذه المنــارة في : ابن رستة ، كتاب الاعلاق النفيسة ، ليدن ١٨٩١ ص ١١٨ – ناصري خسرو، سفرنامه، تعريب الدكتور يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٤٥ ص ٤٤ – ابن حوقل ، صورة الارض ، ليدن ١٩٣٨ ص ١٥١ – معجم البلدان لياقوت مجلد ١ ص ١٨٦ – مروج الذهب للمسعودي مجلد ١ ص ٣٧٥–٣٧٨– رحلة بنيامين التطيلي ص ١١٣–١١٥ – ابن جبير ص ٤٠ – الاستبصار ص ٦٩–٩٩ – عبداللطيف البغدادي، كتاب الافادة والاعتبار، القاهرة ١٨٧٠ – المقريزي، الخطط ، مجلد ١ ص ٢٧٣–٢٧٨ .

٣ – ابن رستة ص ١١٧ – ابن حوقل ص ١٥٠ – ابن جبير ص ٤١ – ياقوت ص ٢٦٢ – المقريزي ، الخطط ص ٢٨٠–٢٨٤ .

٤ – لاحظ بعض مؤرخي العرب هذا النظام الشطرنجي فأشار اليه ياقوت في معجمه (مجلد ١ ص ١٨٦) ، كما اشار اليه غرس الدين خليل في زبدة كشف الممالك ص ٤٠ .

الآزاج والقناطر التي تحت المدينة . وقد عمل لتلك العقود والآزاج ، مخاريق ، ومتنفسات للضياء ، ومنافذ للهواء » [١] ، واسوارهـا كانت منيعـة [٢] ، مزودة بالحصون والأبراج [٣].

وكان من الطبيعي،للاسباب السابقة،ان يقع اختيار عمرو بن العاص على هذه المدينة العظيمة لتكون عاصمة لمصر الاسلامية ، كما كانت من قبل عاصمة لمصر في العصر البطلمي والعصرين الروماني والبيزنطي. فمناخها أطيب من اي بقعة أخرى بأرض مصر [٤] ، وأسوارها الحصينة تكفل للمسلمين مقاومة الغزاة والمغيرين [٥] ، وبيوتها المهجورة تغني المسلمين عن بناء مساكن وخطط جديدة .

ويذكر المقريزي، انه هم بسكناها بعد ان رأى بيوتها وبناءها مفروغاً منه، وقال عبارته المشهورة «مساكن قد كفيناها»[٦]، ثم كتب يستأذن عمر بن الخطاب في ذلك، وجاءه رأي عمر بالعدول عن ذلك حتى لا يحول بينه وبين المسلمين ماء

---

١ – المسعودي، مروج الذهب مجلد ١ ص ٣٧٣ – الاستبصار ص ٩٣ – المقريزي، الخطط مجلد ١ ص ٢٦٣ .

٢ – ذكر مؤرخو العرب انها كانت تتألف من ثلاثة أحياء يحيط بكل منها سور ، ثم يدور بها جميعاً سور مشترك (انظر ابن عبد الحكم ص ٦١ – الاستبصار ص ٦٩ – المقريزي ص ٢٦٠) .

٣ – كانت المدينة مزودة بسبعة حصون وخنادق (ياقوت ، مجلد ١ ص ١٨٦ – المقريزي ، ص ٢٦٠ وما يليها) . وقـد اشار ابن عبد الحكم الى حصونها فقال : « حتى بلغوا الاسكندرية فتحصن بها الروم وكانت عليهم حصون مبنية لا ترام ، حصن دون حصن، فنزل المسلمون ما بين حلوة الى قصر فارس » ص ١٠٩ ، ١١٠ ، وأغلب الظن ان هذه الحصون كانت موزعة على الزوايا البارزة السبعة لسور الاسكندرية اليوناني الروماني .

٤ اشار صاحب الاستبصار الى طيب هوائها وتربتها (ص ١٠٠) .

٥ – اثبتت الايام صحة هذا القول ، فعندما انتقض اهـل الاسكندرية على المسلمين سنة ٢٥ ﻫ تحصنوا داخل الاسكندرية، وعانى عمرو بن العاص كثيراً في استردادها، وأقسم ان يهدم سورها ، وفعل .

٦ – المقريزي ، مجلد ١ ص ٢٩٣ .

في شتاء ولا صيف متى اراد ان يركب راحلته اليهم حتى يقدم عليهم فعل[1]. واغلب الظن ان عمر بن الخطاب كان يهدف من وراء هذه الكلمات ان تكون عاصمة البلاد في موضع لا يطل على بحر او على نهر بل في مكان يسهل الوصول اليه دون اجتياز مياه أياً كان نوعها . ويبدو ايضاً من كلماته انه يشترط في اختيار العاصمة الا تكون ميناء بحرياً . ورأي عمر على هذا النحو رأي سليم يدل على بعد نظره ، وحسن بصيرته ، ولا شك انه ابدى هذا الرأي لما كان يعرفه من بداوة العرب وعدم خبراتهم البحرية ، وقلة دربتهم على ركوب البحر وممارسة شؤونه [2] ، وقد اثبتت الايام صدق هذا الراي ، اذ تمكن البيزنطيون ، بقيادة مانويل ، من الاستيلاء على مدينة الاسكندرية، في اوائل عام ٢٥ هـ (٦٤٥ م)، ولم يكن قد مضى على فتح العرب لهذه المدينة اربع سنوات ، كما حاولوا ذلك مرة ثانية في عام ٣٤ هـ ، فهزمهم المسلمون هزيمة نكراء في ذي الصواري [3] .

وكما اشار عمر على عمرو بالعدول عن اتخاذ الاسكندرية حاضرة للمسلمين في مصر ، كتب عمر الى سعد بن ابي وقاص ، والى عامله بالبصرة ، ألا يجعلا بينه وبين المسلمين ماء [4]، فعدل سعد عن اتخاذ المدائن ، الواقعة على نهر دجلة حاضرة المسلمين، وانتقل منها الى الكوفة وتقع غربي الفرات، وتحول صاحب البصرة من الموضع الذي نزل فيه الى البصرة ، الواقعة قريباً من مصب دجلة والفرات ،

---

١ – المقريزي ، مجلد ١ ص ٢٩٣ .
٢ – كتب ابن خلدون في مقدمته فصلاً عن بداوة العرب وعدم مهارتهم في ثقافة البحر وركوبه (انظر المقدمة طبعة مصر ، مطبعة التقدم ص ٢٧٨) ، واشترط ابن خلدون في المدن الساحلية ان تكون واقعة على جبل حتى لا يتهددها غزو من البحر وتكون في منعة من العدو (المقدمة ص ٣٨٥) .
٣ – ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ص ٢٥٥ – ٢٥٨ – الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، طبعة مصر ١٩٣٩ ،ص ٣٣٨ – ٣٤٢ – ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ط مصر ١٣٥٦ هـ ج ٣ ص ٥٨ – ابراهيم احمد العدوي ، الامويون والبيزنطيون ، القاهرة ١٩٥٣ ص ٩٢ – ١٠٠ .
٤ – المقريزي ١ ص ٢٩٣ – السيوطي ج ١ ص ٥٧ .

في ملتقى الطرق القادمة من نجد والشام وايران [١].

وهناك من الحقائق التاريخية ما يدل على خوف عمر بن الخطاب من اتخاذ عاصمة بحرية، فقد حرص الخليفة على تأمين مدينة الاسكندرية، حتى بعد ان تحول عنها المسلمون الى الفسطاط، من غارات الروم، وذلك بإرساله غازية من اهل المدينة كل سنة ترابط بالاسكندرية، «وكان على الولاء لا يغفلها ويكنف مرابطها ولا يأمن الروم» [٢]. وجعل عمرو على رباط الاسكندرية ربع رجاله، يقيمون ستة اشهر في الصيف ثم يعقبهم ربع رجاله، فيقيمون بها ستة اشهر في الشتاء [٣]. واهتم الخليفة عثمان بن عفان بتحصين المدينة بعد ان تعرضت مرتين لغزو الروم، فكتب الى عبد الله بن سعد يقول: «قد علمت كيف كان هم امير المؤمنين بالاسكندرية، وقد نقضت الروم مرتين، فالزم الاسكندرية رابطتها، ثم اجر عليهم ارزاقهم، واعقب بينهم في كل ستة اشهر» [٤].

ولقد كان لنفور عمر بن الخطاب من البحر أثر كبير في حرص المسلمين على تأسيس مدنهم وقواعدهم بعيداً عن البحر، كما حدث عندما اختار عقبة بن نافع الفهري موضع القيروان في قلب الصحراء، بعيداً عن الساحل، حتى لا تتعرض هذه القاعدة لتهديد اساطيل الروم، على الرغم من تفوق البحرية الاسلامية وقتئذ على البحرية البيزنطية. اما في حالة تأسيس مدينة اسلامية تطل على البحر،

---

١ - انظر التفاصيل في كتابي تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي ٤٢ - ٤٤، ويذكر البلاذري نقلاً عن الواقدي ان عمر بن الخطاب كتب الى سعد بن ابي وقاص يأمره بأن يتخذ للمسلمين دار هجرة وقيرواناً، وألا يجعل بينه وبينهم بحراً، وذكر ايضاً نقلا عن علي بن المغيرة الاثرم، ان عمر كتب الى سعد «ان العرب بمنزلة الابل لا يصلحها إلا ما يصلح الابل فارتد لهم موضعاً عدناً، ولا تجعل بيني وبينهم بحراً،» (البلاذري، فتوح البلدان، القسم الثاني، نشره الدكتور صلاح الدين المنجد. القاهرة ١٩٥٧ ص ٣٣٩).

٢ - ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب ص ٢٥٨ - المقريزي، الخطط مجلد ١ ص ٢٩٣.

٣ - المرجع السابق ص ٢٥٨.

٤ - المرجع السابق ص ٢٥٩.

فيلاحظ ان القائم بتأسيسها لا يتورط في ذلك الا اذا ضمن لها موقعاً منيعاً لا يجعلها عورة لأي غزو بحري ، او ان تكون محرساً لمدينة اخرى مجاورة ، كما حدث عندما اسس حسان بن النعمان الغساني مدينة تونس ، اذ راعى في ذلك ان تشرف على مدخل قرطاجنة ، وتكون في موقع حصين يمنعها من اي غزو بحري محتمل ، وجعلها حسان بالاضافة الى ذلك محرساً ، زوده بحامية على اهبة الاستعداد لتلقى الروم اذا فكر هؤلاء في غزو قرطاجنة ، الحاضرة القديمة لولاية افريقية . ويرى الدكتور سعد زغلول عبد الحميد تفسيراً لعدول عمر بن الخطاب عن اختيار الاسكندرية عاصمة لمصر الاسلامية واختيار عمرو لموضع الفسطاط لهذا الغرض، ان هذا الموضع الذي يقع قريباً من عواصم مصر التقليدية (عين شمس ومنف) أصلح المواضع لحكم الوجهين القبلي والبحري ، وان اختيار عمرو له ، تسجيل لعودة مصر الى السياسة الوطنية الأصلية ، التي توجه اهتمامها الى داخل البلاد ، ونحو المشرق العربي، وذلك ما لم يكن يتحقق في الاسكندرية التي تتطلع الى البحر والى الشواطىء الاوروبية [١] .

وايا كانت اسباب عدول المسلمين عن اتخاذ الاسكندرية عاصمة لمصر ، فان هنالك امر ثابت نتج عن ذلك ، سواء بطريقة مباشرة او غير مباشرة ، ان الاسكندرية اخذت تفقد كثيراً من مكانتها القديمة، منذ ان دخلت في فلك الدولة العربية ، ويمكننا ان نضيف الى هذا العامل عاملين آخرين ، كان لهما اثر عميق في الاضمحلال الذي اصاب المدينة قبل دخول جيوش عمرو بن العاص فيها، واول هذين العاملين ان الاسكندرية كانت قد فقدت قبل الفتح العربي جانباً كبيراً من عظمتها القديمة ، والمكانة السامية التي تبوأتها في العصرين البطلمي والروماني ، بسبب الصراع بين الرومان والبطالسة من جهة، والنزاع بين الروم الوثنيين والمصريين

---

١ – سعد زغلول عبد الحميد، الاسكندرية من الفتح العربي حتى العصر الفاطمي، مقال بكتاب تاريخ الاسكندرية منذ اقدم العصور ، ص ٢٤٢ .

المسيحيين ، في عهد انتشار المسيحية من جهة ثانية [١]، والنزاع المذهبي بين بيزنطة والاسكندرية حول طبيعة المسيح وارادته من جهة ثالثة . وقد أثر كل ذلك على عمران المدينة، وادى الى تدمير كثير من معالمها، وتخريب العدد الأعظم من آثارها التي كانت مفخرة من مفاخر الاسكندرية، كمكتبة المتحف المعروفة باسم مكتبة البروخيون، او مكتبة الحي الملكي التي انشأها بطليموس الاول (٣٢٢ — ٢٨٢ ق . م) وقد امتدت اليها النيران سنة ٤٨ ق‌م ، عندما اضرم اشيلاس ، القائد المصري في عهد كليوباترة ، النيران في اسطول قيصر ، فامتدت هذه النيران الى الارصفة ، والتهمت كثيراً من مخازن الكتب الملحقة بهذه المكتبة الشهيرة [٢].

وكذلك مكتبة السيرابيوم التي أنشاها بطليموس الثاني ، والتي أحرقت سنة ٣٩١ م، ومثل أسوار الاسكندرية التي تهدمت في عهد الامبراطور اورليانوس ٢٧٢ م . مع القسم الاعظم من حيها الملكي المعروف بالبروخيون [٣] . وهكذا

---

١ – بلغ اضطهاد الروم لمعتنقي المسيحية في الاسكندرية ذروته في عهد الامبراطور دقلديانوس ، وفي هذا العهد اضطرمت نيران الثورة في هذه المدينة ، فحاصرها الامبراطور مدة ثمانية اشهر حتى سقطت ، فخرب كثيراً من ابنيتها . كذلك ادى انتصار المسيحية على الوثنية الى هدم آثار الوثنية في الاسكندرية ، من معابد، وهياكل ، كمعبد السيرابيوم الذي قام المسيحيون بزعامة البطريرك ثيوفيلوس بهدمه وتدميره ، وكسر تماثيل سيرابيس، واشعال النيران في مكتبته الشهيرة ، وكان ذلك في سنة ٣٩١ م ، بعد أن أعلن الامبراطور تيودوسيوس الاول أن المسيحية اصبحت دين الامبراطورية (انظر الدكتور جمال الشيال ، الاسكندرية طبوغرافية المدينة وتطورها ص ٢٠١) .

٢ – في ذلك يقول اميانوس ماركيلينوس « وقد اجتمعت شهادة المؤرخين القدماء على ان السبعمائة الف مجلد التي كان البطالمة قد جمعوها بحرص وعناية قد احرقت في حرب الاسكندرية عندما خربت المدينة في عهد الدكتاتور قيصر » (انظر كتابه « مصر في القرن الرابع » ترجمة دكتور وهيب كامل ص ٨٦) ويرجح الدكتور وهيب كامل ان هذه المكتبة خربت نهائياً سنة ٢٧٢ م، عندما قمع اورليانوس الثورة التي تزعمها فيرموس وحاصر الثوار ، وسحقهم في الحي الملكي . (انظر ملاحظة رقم ٢ ص ٨٦ من نفس المرجع) .

٢ – المرجع السابق ص ٨٨ .

كانت الاسكندرية عندما افتتحها العرب قد فقدت جزءاً كبيراً من آثارها .

والعامل الثاني في اضمحلال الاسكندرية قبل العصر الاسلامي تعرضها لحركة هبوط حدثت في عهد سابق للفتح العربي [1] ، نتيجة لهزات أرضية تعرضت لها الاسكندرية ، أدت الى انخفاض منسوب المدينة ستة او سبعة أمتار ، فطغى البحر على الجانب الاعظم من الواجهة الشمالية للمدينة ، المطلة عليه ، واختفى تحت مياه البحر [2]، وكانت تشتمل على جزء من الحي الملكي، وجانب من الحي اليهودي . كما سبب هذا الهبوط اختفاء جزيرة انتيرودس الملكية ، والارصفة القديمة التي كانت تقع الى الشمال الغربي من جزيرة فاروس [3].

---

١ – صبحي عبدالحكيم مدينة الاسكندرية ، القاهرة ١٩٥٨ .

٢ – ذكر المقريزي ان « أهل الاسكندرية يخبرون عن أسلافهم أنهم شاهدوا بين المنارة وبين البحر ، نحواً مما بين المدينة والمنارة في هذا الوقت، فغاب عليه ماء البحر في المدة اليسيرة، وان ذلك في زيادة » . الخطط ، مجلد ١ ص ٢٧٦ .

٣ – بحث الاستاذ جاستون جنديه Gaston Jondet عن اسباب ذلك في كتابه عن الارصفة وموانيء جزيرة فاروس القديمة الغارقة في قاع البحر . انظر كتابه :
Les ports submergés de l'ancienne île de pharos, Mémoire de l'Institut d'Egypte, vol. X, le Caire 1916, P. 57-63 .
هذا وقد اكتشف منذ ثلاث سنوات بمحض الصدفة عن بقايا أبنية وتماثيل وأعمدة في قاع البحر بجوار جزيرة فاروس ، واهتمت وزارة الثقافة والارشاد بهذا الكشف وعملت على تصوير هذه الآثار تحت الماء .

الفصل الثالث

اضمحلال الإسكندرية

في القرون الثلاثة الأولى للهجرة

لم تمض اعوام قليلة على فتح العرب لمصر ، حتى اخذت الاسكندريــة تسير بخطى حثيثــة نحو اضمحلال محتوم . ولا ترجع اسباب هذا الاضمحلال الى اتخاذ المسلمين الفسطاط حاضرة لمصر الاسلامية بدلاً من الاسكندريــة العاصمة القديمة للبلاد ، او الى العــاملين الآخرين اللذين ذكرتهما بعد ذلــك فحسب ، بل يرجع كذلك الى عوامــل أخرى لا يمكن للبــاحث في تخطيطهــا وعمرانهــا في العصر الاسلامي ان يغفلها .

وأول هذه العوامــل ، نقص عدد سكان الاسكندريــة بعد الفتح العربي مباشرة نتيجــة لجلاء عدد كبير من سكانهــا من الروم واليهود ، وكانوا يؤلفون الكثرة الغالبة من مجموع سكان المدينة ، وفقاً لمعاهدة الصلح . فقد اشترط قيرس على عمرو ان يجلو رجال حامية الاسكندرية عن المدينة حــاملين معهم امتعتهم واموالهم [١] . وقــد قدر ابن عبد الحكم عدد من جلا من الروم بثلاثين الــف رجل [٢] ، خرجوا في مائة مركب مع ما استطاعوا حمله من متاع ومال . وذكر أيضاً نقلا عن هانىء بن المتوكل ، أنه رحل من الاسكندرية في الليلة التي دخلها

---

١ – يذكر البلاذري ان عمْراً صالح المقوقس على أن يخرج من الاسكندرية من أراد الخروج ويقيم بها من أحب المقام (البلاذري ج ١ ص ٢٦٠) . وذكر حنا النقيوسي من بين شروط الصلح ان ترحل مسلحة الاسكندرية في البحر (سيدة الكاشف ، مصر في عصر الولاة القاهرة ١٩٥٩ ص ١٦) ويروي ابن عبــد الحكم نصاً نقله عن هانىء بن المتوكل جاء فيه « كان عــدد من بالاسكندرية من الروم مائتي الف من الرجــال ، فلحق بأرض الروم اهل القوة وركبوا السفن » (ص ١٢١) .

٢ – ابن عبد الحكم ، ج ١ ص ١٢١ .

عمرو بن العاص او في الليلة التي خافوا فيها دخول عمرو، سبعون الف يهودي [1] . وذكر كذلك ان عدد من بقي من سكان الاسكندرية بلغ ستمائة الفاً سوى النساء والصبيان [2] ، وهو رقم مبالغ فيه كثيراً ، فان ديودور الصقلي يقدر عدد سكان الاسكندرية سنة ٦٠ ق .م بنحو نصف مليون [3] ، اي في ذروة عظمتها، وليس من المعقول ان يصل عدد سكانها إلى ستمائة الف في العصر البيزنطي ، وهو العصر الذي قاسى فيه هؤلاء السكان صنوف الاضطهاد الديني ، وأرغم عدد كبير من المؤمنين بالمذهب اليعقوبي على الفرار من هذه المدينة إلى الصحراء، هذا بالاضافة الى مظاهر الاضطراب والفتن والثورات التي كان لها تأثير عميق على العمران السكندري. ولو افترضنا ان هذا الاحصاء قريبٌ من الصحة، لما كثر عدد الاخائذ التي ظفر بها الفاتحون العرب ، فقد اجمع المؤرخون على ان الاسكندرية لم يكن بها خطط، وانما كانت أخائذ استولى عليها المسلمون ، باستثناء الدار التي اختطها الزبير بن العوام غربي الاسكندرية [4] . وكان المسلمون ، لكثرة الاخائذ ، ينزلون كل عريف في قصر ينزل فيه بمن معه من أصحابه [5] ، فقد اتخذ عمرو قصراً في داخل المدينة على نشز مرتفع، وبجواره أسس جامعه المسمى بمسجد عمرو بن العاص ، او الجامع الغربي ، الواقع بالقرب من الباب الغربي ، ونزل أبو ذر الغفاري الصحابي منزلاً يقع غربي المصلى المجاور لمسجد عمرو مما يلي البحر ، ونزل معاوية بن حديج في قصر فوق التل [6] .

---

١ – نفس المرجع – المقريزي ، الخطط ، مجلد ١ ص ٢٩١ .

٢ – ابن عبد الحكم ص ١٢١ – ١٢٤ المقريزي ص ٢٩١ . كذلك أورد هذا الرقم المؤرخ المصري ابن اياس عند تعرضه لذكر عدد سكان الاسكندرية عند الفتح العربي (بدائع الزهور ج ٤ ص ٤٢٤) .

٣ – Breccia , op . cit . p . 32

٤ – ابن عبد الحكم ج ١ ص ١٧٧ .

٥ – نفس المرجع ص ٨٧ – المقريزي مجلد ١ ص ٢٩٣

٦ – ابن عبد الحكم ص ١٧٧ – المقريزي ، الخطط مجلد ١ ص ٢٩٣ .

ونعتقد ان عدد سكان الاسكندرية لم يكن يتجاوز كثيراً الثلثمائة الف ، فقد ذكر المقريزي نقلا عن لهيعة أنه وجد بالاسكندرية من أهل الذمة ثلثمائة الف ، فقدر عليهم دينارين لكل شخص ، فحصل عمرو من جزية الاسكندرية ستمائة الف دينار[1]. والواقع ان عدد سكان الاسكندرية قبل الفتح العربي لم يكن يصل بأي حال من الاحوال الى نصف مليون للاعتبارات السابقة ، وقد نقص عدد السكان برحيل الروم ، وكانوا يؤلفون العدد الاعظم من السكان ، مع عدد غير قليل من اليهود ، خافوا على أنفسهم البقاء في الاسكندرية في ظل الفاتحين الجدد .

ونضيف الى ما سبق ذكره ، ان عدد سكان الاسكندرية في الوقت الحاضر لا يزيد على مليون ونصف مليون، على الرغم من امتداد المدينة الحديثة الى الشرق والغرب والشمال والجنوب، بحيث اصبحت في الوقت الحاضر تتسع الى نحو ثلاثة امثال المساحة التي كانت تشغلها الاسكندرية القديمة ، وبالرغم من اكتظاظ المدينة الحاضرة بالسكان، واحتشادها بالدور المرتفعة، التي تتسع لعدد كبير منهم.

كذلك نقص عدد السكان مرة ثانية في سنة ٢٥ ﻫ، برحيل عدد كبير من اهل الاسكندرية ، عقب استيلاء عمرو على المدينة للمرة الثانية ، ففي هذه السنة « كتب الروم الى قسطنطين بن هرقل ، وهو كان الملك يومئذ ، يخبرونه بقلة من عندهم من المسلمين ، وبما هم فيه من الذلة وأداء الجزية ، فبعث رجلاً من اصحابه يقال له منويل في ثلاث مئة مركب ، مشحونة بالمقاتلة ، فدخل الاسكندرية ، وقتل من بها من روابط المسلمين ، الا من لطف للهرب ، فنجا ، وذلك في سنة خمس وعشرين ، وبلغ عمراً الخبر ، فسار اليهم [2] في خمسة عشر الفاً ، فوجد

---

١ – المقريزي ، المرجع السابق ص ٢٩٢ .
٢ – طلب اهل مصر من عثمان بن عفان ان يقر عمراً في القيادة « حتى يفرغ من قتال الروم، فان له معرفة بالحرب وهيبة في العدو ، ففعل » (ابن عبد الحكم ص ٢٣٥ – البلاذري ج ١ ص ٢٦٢) .

مقاتلتهم قد خرجوا يعيشون فيما يلي الاسكندرية من قرى مصر. فلقيهم المسلمون، فرشقوهم بالنشاب ساعة والمسلمون مترسون، ثم صدقوهم الحملة. فالتحمت بينهم الحرب، فاقتتلوا قتالاً شديداً. ثم ان اولئك الكفرة ولوا منهزمين، فلم يكن لهم ناهية ولا عرجة دون الاسكندرية. فتحصنوا بها، ونصبوا العرادات. فقاتلهم عمرو عليها اشد قتال، ونصب المجانيق، فأخرب جدرها، وألح بالحرب حتى دخلها بالسيف عنوة، فقتل المقاتلة، وسبى الذرية، وهرب بعض رومها الى الروم، وقتل عدو الله منويل ...»[1]. وهكذا اضطر عدد كبير من الروم الثائرين الى الفرار مع فلول الجيش البيزنطي الى القسطنطينية بعد ان هزمهم عمرو بن العاص واسترد المدينة[2].

وهناك عامل آخر في اضمحلال الاسكندرية بعد الفتح العربي، وهو تهديم عمرو لسورها الحصين بأبراجه العتيدة، وقلاعه التي لا ترام[3]، وذلك عندما دخلها في المرة الثانية، على اثر انتقاض اهلها، ونزول الجيش البيزنطي بقيادة مانويل. ويذكر المؤرخون العرب ان عمراً عانى كثيراً عند حصاره لأسوار الاسكندرية، وندم على تركه اسوار المدينة سليمة عندما افتتحها في المرة الاولى، فأقسم لئن استولى عليها هذه المرة الثانية ليهدمن اسوارها ويجعل الاسكندرية «كبيت الزانية يؤتى من كل مكان[4]». ويتفق هؤلاء المؤرخون على انه هدم السور كله، بعد ان افتتح المدينة[5]، حتى لا يتخذ هذا السور مرة ثانية حصناً للمنتقضين، يتحصنون فيه، وتصلهم الامدادات من البحر، خاصة وان العرب كانوا قليلي

---

١ – البلاذري، ج ١ ص ٢٦٠.
٢ – ابن عبد الحكم ص ٢٣٥ – ٢٣٧ – البلاذري، ج ١ ص ٢٦٩ – المقريزي، الخطط مجلد ١ ص ٢٩٤ – سيدة الكاشف، مصر في عصر الولاة. ص ١٨.
٣ – ابن عبدالحكم ص ١١٠ – المقريزي، مجلد ١ ص ٢٨٨.
٤ – ابن عبدالحكم ص ٢٣٥ – المقريزي، الخطط، مجلد ١ ص ٢٩٤.
٥ – ابن عبدالحكم ص ٢٣٧ – البلاذري، ج ١ ص ١٦١ – المقريزي، الخطط، مجلد ١ ص ٢٩٤ – السيوطي، حسن المحاضرة، ج ١ ص ٧٠.

خبرة بشؤون البحر وثقافته ، ولم تكن دار صنـاعة الاسكندرية قد استأنفت نشاطها في صناعة السفن بعد .

ويبدو ان ما ذكره هؤلاء المؤرخون فيما يختص بهدم سور الاسكندرية كله يتضمن بعض المبالغة، فليس من المعقول ان يهدم عمرو كل سور الاسكندرية الذي يحمي المدينة من الغارات البحرية ، خاصة وان العرب كانوا يخشون الروم عليها ويعتبرونها باباً مفتوحاً لنزولهم بأرض مصر [١] ، كما انـه ليس من المعقول ان يذكر المؤرخون ان عمرو هدم سور الاسكندرية كله، ثم يذكرون بعد ذلك في حوادث ٢٠٤ هـ أن احد الثوار في مصر وهو عبد العزيز الجروى حاصرها مدة سبعة اشهر ، ونصب عليها المجانيق[٢] ، مما يدل على أن سور الاسكندرية كان ما يزال قائماً على الاقل في معظم أجزائه . فكيف يمكننا ان نفسر هذا التنـاقض الواضح ؟ ان هذا التناقض يدفعنا الى الاعتقاد بأن عمرو بن العاص لم يهدم سور الاسكندرية كله كما زعم المؤرخون . وأغلب الظن أنه فتح في هذا السور ثغرات كبيرة ، ونرجح أن هذه الثغرات فتحت في الجانب الجنوبي من السور، والجانب الجنوبي الشرقي منه ، ويؤيدنا في ذلـك ما ذكره البلاذري من انـ عمرو فتح الاسكندرية ، « واخرب سورها » [٣] وما ذكره في موضع آخر ان عمرو نصب المجانيق ، « فأخرب جدرها » [٤] . ونعتقد ان المقصود بالتخريب ، هدم بعض اجزاء منه ، حتى لا تصلح الاجزاء الباقية بعد ذلـك لتحصن اهـل المدينة اذا فكروا في الانتقاض مرة اخرى. ونعتقد ايضاً ان عمرو أبقى على الجانب الشمالي، والشمالي الغربي ، والشمالي الشرقي من السور ، لتساعد في مدافعة المغيرين والغازين من البحر ، كما نعتقد ايضاً ان الاجزاء المهدمة من السور رممت ترميماً مؤقتـاً في

---

١ – عبدالهادي شعيرة ، الاسكندرية من الفتح العربي ص ٨٦ .
٢ – المقريزي ، الخطط ، مجلد ١ ص ٣٠٤ .
٣ – البلاذري ، ج ١ ص ٢٦١ .
٤ – البلاذري ، ج ١ ص ٢٦٠ .

اوائل القرن الثالث الهجري، عندما نزل الأندلسيون الاسكندرية سنة ٢٠٢هـ، او قبل ذلك بعهد قصير .

ويؤيد ما ذهبنا اليه ان بقايا من السور القديم كشفت عنها الأبحاث الاثرية التي اجراها المهندس المصري محمود باشا الفلكي في أواخر القرن التاسع عشر [١] ، وان بعض آثار هذا السور الروماني ما زالت قائمة حتى اليوم في حدائق الشلالات .

وايا كان مدى التخريب الذي لحق بسور الاسكندرية وكيفية معالجته بعد ذلك ، فإن هنالك امر ثابت لا بد من ذكره ، وهو ان العمران السكندري تأثر بهذا التخريب ، والمعروف ان الاسوار هي التي تحدد نمو العمران واتساعه ، فاذا تخربت او فتحت فيها فتحات، انكمش العمران الى المناطق الداخلية من المدينة، واصبحت المناطق الملاصقة لجانب السور المخرب ارضاً براحاً مهجورة ، ونتيجة لذلك ، يكتظ قلب المدينة بالسكان ، حتى يبتعدوا عن مرمى قذائف المجانيق ، فلا تصل هذه القذائف اليهم ، ولا تتعرض لها إلا الابنية المهجورة القريبة من السور المتخرب وهذا يفسر لنا انحسار العمران في الاسكندرية بعد الفتح الثاني للمدينة الى الداخل ، فتصبح المنطقة الشرقية والجنوبية الشرقية منطقة غير مأهولة بالسكان ، وتتحول الى أطلال دارسة .

اما العامل الثالث الذي ساعد على اضمحلال المدينة بعد الفتح العربي مباشرة، فهو انقطاع ترعة شيديا التي كانت تمد الاسكندرية بماء النيل ، واعتماد السكان في السقيا والري على مياه الآبار والخزانات ، والصهاريج . وقد ترتب على انقطاع المياه ان اقفرت البساتين والمزارع التي كانت تمتد على ضفتي الترعة القديمة بعد ان كانت بلاد مريوط في نهاية العمارة ، وكانت الجنات تتصل فيما بينها وبين ارض برقة ، وكانت السفن تجري في النيل وتتصل باسواق الاسكندرية . وسنرى فيها

---

١ – جمال الدين الشيال، الاسكندرية : طبوغرافية المدينة وتطورها ، ص ١٩٦ .



الطَابية

بعد كيف ان عمران الاسكندرية كان يزدهر في الاوقات التي يتم فيها تطهير هذه الترعة من الرواسب الطينية التي تتراكم في مجراها ، ونفهم من ذلك ان نمو عمران المدينة كان يتوقف على وصول مياه النيل الى مدينة الاسكندرية عن طريق ترعتها المعروفة بخليج الاسكندرية .

الفصل الرابع

العمران السكندري منذ الفتح العربي حتى عصر دولة المماليك البحرية

اولاً — في عصر الدولة الاموية

لم يغير العرب شيئاً في تخطيط الاسكندرية، اذ ان القبائل العربية التي شاركت في فتحها مثل قبيلتي جذام ولخم [1] ، استقرت في الاخائذ، واكتفى العرب، على هذا النحو، بالاقامة في الدور التي تركها الروم . أما الأبنية الجديدة التي اختطها العرب ، فلم تكن تعدو المساجد التي اقيمت ، اما في المواضع التي كانت تشغلها الكنائس القديمة مثل جامع الالف عمود ، الذي أقيم على أنقاض كنيسة العذراء مريم، وجامع العطارين ، الذي اقيم في موضع كنيسة القديس اثناسيوس ، أم في مواضع أخرى فرضتها الحوادث ، مثل جامع الرحمة ، الذى أسس في الموضع الذي رفع فيه المسلمون السيف عن الروم سنة ٢٥ هـ .

وظلت الشوارع مستقيمة ، تتقاطع فيما بينها عمودياً ، على شكل رقعة الشطرنج [2] . وسنرى ان هذا النظام ظل واضحاً حتى عصر دولة المماليك الشراكسة .

أقام المسلمون في النصف الاول من القرن الاول للهجرة عدة مساجد هي :
١ — مسجد موسى عليه السلام ، وكان يقع قريباً من المنارة . ويذكر ابن

---

١ — المقريزي ، البيان والاعراب عما نزل بأرض مصر من الاعراب ، القاهرة ١٣٣٤ هـ ، ص ٣٥ .

٢ — هكذا وصفها ياقوت في معجم البلدان، فقال « وهي شطرنجية ، ثمانية شوارع في ثمانية ». ص ١٨٣ .

عبد الحكم ان هـذا المسجد كان أقرب إلى الكنيسة [1] ، ولعله يعني بـذلك أنه كان اقرب مساجد المدينة إلى الكنيسة الكبرى او كنيسة القديس مرقص ، التي كانت تقع على شاطىء البحر بحيث تتمكن السفن الوافدة إلى الميناء الشرقية من رؤيتها [2] .

٢ – مسجد الخضر ، وكان يقع بالقرب من القيسارية [3] .

٣ – مسجد سليمان او مسجد الرحمة [4] ، وكان يقع عند القيسارية ، قريبـاً من مسلتي معبـد كليوباتره القـديم ، المسمى بالقيصريوم ، وفي الموضع المسمى بالبقرات . وقد سمي أيضاً بمسجد القيســارية لهذا السبب ، كما سمي أيضاً بمسجد اللبخات ، لقربه من بعض أشجار اللبخ [5] . وقد كان الموضع الذي أسس عليــه مسجد الرحمــة غير معرووف ، ولكن ياقوت يجعـل من هذا المسجد ومسجد سليمان الذي يقع بالقيسارية مسجداً واحـداً . وعلى ذلك يمكننا تحديد موقعـه قريباً من الكنيسة المرقسية الحالية،وإن كان الاستاذ الدكتور سعد زغلول يرجح وقوعه قريباً من المكان المسمى اليوم بسيدي عمرو بحدائق الشلالات [6] .

---

١ – ابن عبدالحكم ، ص ٦١ .

٢ – جمال الدين الشيال ، الاسكندرية ص ٢٠٣ – عبد العزيز سالم ، تاريـخ الاسكندرية ص ٣٣ – داود عبده ، فن الاسكندريـة في العصر البيزنطي ، مقال بكتاب محافظـة الاسكندرية ص ٢١١ .

٣ – السيوطي، حسن المحاضرة، ج ١ ص ٣٧. ونلاحظ ان ابن عبدالحكم يخلط بين مسجدي الخضر والاخضر، ثم يذكر ان كلا منهما مسجد (انظر فتوح مصر ص٦١) ، بينما يذكر السيوطي أنهما مسجدان ، أحدهما بالقيسارية ، والآخر عند باب المدينة المعروف بالباب الاخضر .

٤ – ذكر ياقوت أن المسلتين كانتا عند مسجد الرحمة ، بالقرب من البقرات (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ، ص ١٨٤) .

٥ – ابن عبدالحكم ص ٦١ .

٦ – سعد زغلول عبدالحميد ، الاسكندرية من الفتح العربي ، مقال بكتاب محافظة الاسكندرية ص ٢٥٢ .

٤ – مسجد ذو القرنين ، ويخلط ابن عبد الحكم بين هذا المسجد والمسجد الاخضر الذي كان يقع قريباً من الباب الغربي للاسكندرية [١] . والأرجح ان مسجد ذي القرنين كان يقع قريباً من قبر الاسكندر ، ولعله أقيم في نفس الموضع الذي يقوم عليه اليوم جامع النبي دانيال .

٥ – مسجد الخضر [٢] الواقع عند باب المدينة الغربي ، وتصحيحه المسجد الأخضر [٣] ، ويعرف أيضاً بمسجد الألف عمود، أو الجامع الغربي الذي يشاهده المرء على يمينه عند دخوله من الباب الغربي ، أقامه عمرو بن العاص عندما افتتح الاسكندرية. وبجواره كانت تقع الدار التي نزلها أبو ذر الغفاري الصحابي [٤] . ويذكر علي مبارك أن هذا المسجد أقيم على أنقاض كنيسة العذراء مريم [٥] ، وهي الكنيسة التي أسسها البطريرك ثيوناس (٢٨٢ م – ٣٠٠) [٦] . ويبدو أن بناته استغلوا أعمدة الكنيسة في بيت الصلاة ، فسمي لذلك بالألف عمود . وقد ظل هذا الجامع الغربي قائماً على الأقل حتى عصر دولة المماليك الشراكسة، فقد ذكر المؤرخ السكندري النويري ، أن السلطان الاشرف شعبان صلى فيه الجمعة ، عند زيارته لمدينة الاسكندرية سنة ٧٧٠ هـ . ويحدد النويري موقع هذا الجامع ، فيذكر أنه يقع قريباً من ضريح الشيخ الطرطوشي ومن دار السلطان ، داخل سور الاسكندرية ، مما يلي الباب الغربي ، المعروف بالباب الأخضر [٧] . ويبدو انه سمي بالمسجد الاخضر لوقوعه بجوار هذا الباب .

---

١ – ابن عبدالحكم ص ٦١ – ابن دقماق ص ١٢٢ .
٢ – ابن عبدالحكم ص ٦١ – السيوطي ج ١ ص ٣٧ .
٣ – نسبة الى الباب الاخضر وهو باب الاسكندرية الغربي او باب القرافة .
٤ – يذكر ابن عبدالحكم ان أبا ذر الغفاري نزل منزلاً يقع غربي المصلى الذي عند مسجد عمرو مما يلي البحر (انظر فتوح مصر ص ١٧٧ ، والخطط ، مجلد ١ ، ص ٢٩٣) .
٥ – علي مبارك باشا ، الخطط التوفيقية ، ج ٧ ، ص ٤٣ ، بولاق ، ١٣٠٥ هـ .
٦ – عزيز سوريال عطية ، الاسكندرية المسيحية ، مقال في كتاب الغرفة التجارية ١٩٤٩ ، ص ٨٣ .
٧ – نص النويري ، من كتابي تاريخ الاسكندرية ص ٢٠٠ .

كل هذا يؤكد ان الجـامع الغربي ، أو الجامع الأخضر ، أو جـامع الالف عمود هو جامع عمرو الكبير .

وهناك رأي آخر للاستاذ الدكتور سعدزغلول عبدالحميد،فهو يذكر أنالجامع الكبير الذي بناه عمرو كان يقع في الموضع الذي يقوم عليه اليوم المسجد العمري، ويستدل على ذلك بأدلة منها ان هذا المسجد الحـالي من اسمه ، ولقربه من حي عمود السواري وباب السدرة ، بعيداً عن الشاطىء ، وفي موضع امين، يتفق مع الموقع الذي اقيم عليه الجامع الكبير . كذلـك يستند على نص ذكره ابن عبـد الحكم جاء فيه ، ان عمراً لما فتح الاسكندرية ، أقبل هو وعبادة بن الصامت ، وابو ذر الغفاري ، وابو الدرداء ، ومعاوية بن حديج ، وعلوا الكوم الذي فيه مسجد عمرو بن العاص ، وان عمراً نزل في قصر هناك ، ونزل ابو ذر منزلاً في غرب المصلى المجاور لمسجد عمرو مما يلي البحر [1] . ولما كان المسجد العمري الحالي يقع قريباً من مقـام سيدي ابي الدرداء ، فلا يستبعد ان يكون المسجد العمري مقاماً على ارض جـامع عمرو الكبير ، لان وجود مقـام لسيدي ابي الدرداء يعني بقاء اشياء في ذهن الشعب تربط بين هذا المكان وذكرى مقام ابي الدرداء بالاسكندرية . ويستند السيد الدكتور سعد زغلول في رأيه ايضـاً على الروايات الشعبية التي تقول بأن جامع العمري الحالي ، هو مسجد عمرو بن العاص [2] . واخيراً يستند على دليل مادي وهو وجود عمود قـديم له تاج ذو نقش اسلامي قديم ، يمكن ان يرجع الى العصور الاسلامية الاولى [3] .

٦ — مسجد المنارة الذي كان يرابط فيه متطوعة المصريين وغيرهم . ولعـله

---

١ — هذا القول يؤكد ان جامع عمرو كان يقع قريباً من البحر ، والمسجد العمري الحـالي يقع بالقرب من باب السدرة اي في الجنوب الغربي للمدينة بعيداً عن البحر .

٢ — انظر مقال الدكتور سعد زغلول عبد الحميد في كتاب الاسكندرية الذي اصدرته محافظـة الاسكندرية ص ٢٥٢ .

٣ — ليس ضرورياً أن يكون وجود عمود قديم بالمسجد مدعاة لاعتقادنا بان المسجد قديم، فقد استغلت أعمدة الكنائس المهدمة في الابنية الحديثة .

نفس المسجد الذي وصفه الرحالة الأندلسي ابـن جبير (المتوفي سنة ٩٩ ه) ، وذكر انه مسجد موصوف بالبركة، يتبرك الناس بالصلاة فيه [١]. ويسميه صاحب كتاب الاستبصار بمسجد سليمان ، ويذكر أنه مسجد محكم البناء [٢] . ويذكر السيوطي ان مسجد المنارة المذكور من بناء الملك الكامل [٣] ، ولكن الملك الكامل لم يكن قد تولى سلطنة مصر قبل سنة وفاة ابن جبير ، ولذلك نرجح ان اعمال الملك الكامل لم تكن تتجاوز ترميم هذا المسجد .

ويبدو ان ولاة الاسكندرية منذ ايام عمرو بن العـاص قد اهتموا بتحصين ساحل مدينة الاسكندرية ، فقد رأينا كيف كان الخليفة عمر بن الخطاب يبعث في كل سنة غازية من اهل المدينة ، ترابط في الاسكندرية ، وكيف اهتم عبـد الله بن سعد بتحصين المدينة ، امتثالاً لرأي الخليفة عثمان بن عفان ، ولا شك ان ساحل الاسكندرية أصبح مزوداً بمحارس وأبراج وحصون ، خاصة بعد ان تخربت اسوار المدينة ، ولم تعد قادرة على رد المغيرين على المدينة من البحر ، فقد وصف ابن رسته (المتوفي سنة ٢٩٠ ه) هـذه الحصون المشيدة على ساحـل الاسكندرية فقال : « وبالاسكندرية رباطات مع الساحل ، يضرب ماء البحر حيطانها ، تسمى المحارس [٤] » . ولعل وجود هذه المحارس كان سبباً في تسميتها بالاسكندرية المحروسة او بالثغر المحروس [٥].

وفي ايام معاوية بن ابي سفيان، عقد اخوه عتبة بن ابي سفيان، والي مصر، لعلقمة بن يزيد الغطيفي على الاسكندرية ، وبعث معه اثني عشر الفاً من اهل

---

١ – ابن جبير ، الرحلة ، نشرها وليم رايت ، ليدن ١٩٠٧ ص ٤١ .
٢ – الاستبصار ص ٩٦ .
٣ – السيوطي ج ١ ص ٣٧ .
٤ – ابن رسته ، كتاب الاعلاق النفيسة ، ليدن ، ١٨٨١ ص ١١٨ .
٥ – ابن بطوطة ، تحفة النظار ج ١ ص ٩ ، ١٠

الشام ، ثم امده معاوية بعد ذلك بعبد الله بن مطيع في اربعة آلاف من اهل المدينة ، كما امر معن بن يزيد السلمي ان يكون بالرملة في اربعة آلاف على اهبة الاستعداد ، لنجدته اذا ما طلب منه ذلك [1].

ثانياً — في العصر العباسي :

ثم اصبحت الاسكندرية في العصر العباسي اشبه بولاية قائمة بذاتها، وتأثرت بالاحداث التي وقعت منذ اواخر القرن الثاني للهجرة، عندما نزلها الربضيون من اهل قرطبة، في وقت اضطرمت فيه الفتن والثورات في انحاء البلاد، وقد قاست الاسكندرية طوال اثنتي عشرة سنة ، قضتها تحت رحمة الاندلسيين من جهة ، والمغيرين عليها من عرب لخم وجذام من جهة ثانية [2] ، الى ان حاصرها عبد الله بن طاهر في صفر سنة ٢١٢ هـ ، وخلصها من الأندلسيين .

ثالثاً — في العصر الطولوني :

ثم شهدت الاسكندرية منذ النصف الثاني من القرن الثالث الهجري عهداً جديداً من الرخاء والازدهار في ظل الطولونيين ، فقد زارها احمد بن طولون سنة ٢٥٥ هـ، وقلدها الى إسحق بن دينار، وأقره عليها ، ويبدو ان ابن طولون قد احس عند زيارته لهذه المدينة بضرورة إحاطتها بسور منيع ، يحميها من الغزوات ، فأقام سوراً [3] يحيط بأجزائها العامرة فقط ، اى ان الأسوار الجديدة

١ — ابن عبد الحكم ج ١ ص ٢٥٩ .

٢ — المقريزي ، الخطط ، مجلد ١ ص ٣٠٤ .

٣ — علي مبارك، الخطط التوفيقية، ج ٧ ص ٤٣ — جمال الشيال، الاسكندرية طبوغرافيتها ص ٢٠٩ . ويذكر روڤون جيست Rhuvon Guest في مقاله بدائرة المعارف الاسلامية Enc. Islam مادة الاسكندرية ، ان الخليفة العباسي المتوكل هو الذي أمر ببناء سور الاسكندرية سنة ٢٤٤ هـ (٨٥٨ م) .

لم تطوق مسطح المدينة القديمة كلها ، فقد أخرجت من السور الجديد منطقتان كبيرتان ، في شرق المدينة وجنوبها ، فالمنطقة الشرقية كانت تضم مقابر اليونان والرومان، والمنطقة الجنوبية كانت تضم بعض المزارع، وأطلال معبد السيرابيوم، الى جانب بعض الآثار الرومانية التي يشرف عليها عمود السواري . ويبدو ايضاً ان ابن طولون ادرك عدم جدوى توسيع رقعة المدينة بضم الاجزاء المهجورة داخل نطاق السور الجديد ، خاصة وان توسيع رقعة المدينة يستلزم بالضرورة توسيع محيط السور ، وزيادة النفقات التي لا مبرر لها . ولذلك نجد ان سور الاسكندرية الأول في العصر الاسلامي ، وهو السور الذي اسس في عهد احمد ابن طولون باعتبار، ان السور الثاني الاسلامي أسس بعد ذلك في عصر المماليك، كان يضم ما يزيد قليلاً على ثلث مساحة المدينة القديمة ، بعد ان أخرجت منه المناطق الشرقية، والشمالية الشرقية، والجنوبية. وقد شاهد ابن رسته هذا السور الطولوني ، فأشار إليه إشارة عابرة ، عند حديثه عن الطريق المائي الواصل بين الفسطاط والاسكندرية، والذى ينتهي في الشمال الغربي بسور الاسكندرية [١] .

وفتحت في السور الجديد ابواب اربعة في نفس اتجاهات الابواب القديمة او قبالتها ، فسمي الباب الشرقي بباب الشرق ، او باب رشيد، [٢] او باب القاهرة، وسمي الباب الغربي بباب القرافة ، او الباب الاخضر [٣] . اما الباب الجنوبي، فسمي بباب الشجرة [٤]، او الباب السدرة [٥] نسبة الى شجرة ضخمة من اشجار السدر كانت مغروسة الى جواره ، وعرف هذا الباب احياناً باسم باب العمود ، بسبب اشرافه على عمود السواري . اما الباب الشمالي ، فقد ظل يعرف بباب

---

١ – ابن رسته ، الاعلاق النفيسة ص ١١٨ .
٢ – النويري ، كتاب الالمام بالاعلام ص ١٢٩ ظ .
٣ – نفس المرجع ، ص ١٤٢ و ١٤٤ ظ – المقري ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٢٩٣ .
٤ – معجم البلدان ، ص ١٨٧ .
٥ – الالمام بالاعلام ، ص ١٤٦ ظ .

البحر[٢] لاشرافه على الميناء الشرقية .

وظل الطريق الفسيح الممتد بين باب الشرق وباب القرافة ، يخترق المدينة من وسطها ، وكان يعرف باسم المحجة العظمى. ولا شك ان تخطيط المدينة ظل محتفظاً بطابعه القديم ، اذ ظلت المساجد التي اسست بعد الفتح العربي قائمة في مواضعها . اما عن احياء المدينة ، فلا نعرف منها سوى حيَّان : الأول هو القصبة [٢] ويقع في قلب المدينة ، والثاني هو حي العادلية [٣] ، ولا ندري اين كان موقعه على وجه الدقة .

اما الآثار الرائعة التي كانت تزدان بها مدينة الاسكندرية، فقد اصبحت تقع خارج المدينة ، مثل عمود السواري ، الذي كان يتوسط عدة اعمدة تحمل فوقها قبة ، وقد ذكره المقريزي بقوله « وكان بالاسكندرية قصر عظيم لا نظير له في معمور الارض ، على ربوة عظيمة ، بازاء باب البلد (لعله باب العمود) ، طوله خمسمائة ذراع ، وعرضه على النصف من ذلك ، وبابه من أعظم بناء وأتقنه ... وكان فيه نحو مائة أسطوانة، وبازائه أسطوانة عظيمة، لم يسمع بمثل غلظها ... وكان في وسطه قبة، ومن حولها أساطين وعلى الجميع قبة من حجر واحد رخام أبيض»[٤]. وفي موضع آخر يقول «ويقال أن عمود السواري الموجود الآن خارج مدينة الاسكندرية ... » [٥]. كذلك خرج عن نطاق المدينة الملعب القديم الذي كان يقع جنوبي الشارع الكانوبي ، إلى الشرق من منطقة البانيوم ، وأصبح جانباً منه يجاور باب رشيد في المدينة الاسلامية .

---

١ - النويري ، كتاب الالمام ، ص ١٤١ ظ - القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٢٤، ٦٣ - المقريزي ، مجلد ١ ، ص ٢٠٧ .
٢ - ابن عبد الحكم ، ص ٦١ - السيوطي ، ج ١ ص ٣٧ .
٣ - المقري ، نفح الطيب ج ٢ ص ٤٠٦ .
٤ - المقريزي ، الخطط ، مجلد ١ ، ص ٢٨١ .
٥ - نفس المرجع .

لم تقف اعمال ابن طولون الاصلاحية على بناء السور ، فقد قام كذلك بترميم منـار الاسكندرية ، إذ كان طابقه العلوي قـد تهدم بفعل زلزال سنـة ١٨٠ هـ (٧٩٦ - ٧٩٧ م)، فرممه احمد بن طولون، وجعل في أعلى المنار قبة من الخشب[١] ولكنها سقطت بفعل الرياح ، وتهدم أحد أركان المنـارة ، وهو الجانب الغربي مما يلي البحر ، فبناها أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون [٢] ، كذلك عمـل أحمد بن طولون على تعمير الاسكندرية، فأمر في ربيع الاول سنة ٢٥٩ هـ بحفر خليج الاسكندرية [٣] ، وقد ساعد حفر هذا الخليج على إعادة غرس المناطق التي خربت خارج المدينة الاسلامية ، والتي كانت تؤلف فيما مضى ، الجزء الشرقي ، والجنوبي من مدينة الاسكندرية في العصر البطلمي والروماني .

رابعاً ــ في العصر الفاطمي :

وجه الخلفاء الفاطميون إلى ثغر الاسكندريـة اهتماماً لا يقـل عن اهتمامهم بعاصمتهم القـاهرة ، إذ كانت أولى مدن مصر التي خضعت للفاطميين ، فكانت ولاية ثغر الاسكندرية تسند الى الاشخاص ذوي الكفايات ، وقد كرس هؤلاء جانباً كبيراً من اهتمامهم لتعمير الثغر السكندري بالمباني العظيمة، ولم يقصروا في الاشراف على أهم مرافق الثغر ، فجعلوا من المدينة قاعدة للأسطول الفاطمي في البحر الابيض المتوسط، كما جعلوا لثغر الاسكندرية محطاً للأساطيل التجارية القادمة من المغرب ، والأندلس ، وجنوة ، والبندقية ، وأمالفي ، وقد أشـار الجغرافي العربي ابو عبيـد الله البكري إلى اهميـة ثغر الاسكندريـة في العصر الفاطمي ، فذكر ان سفن المغرب كانت تفد من ثغور المغرب إلى الاسكندريـة

---

١ - المسعودي . التنبيـه والاشراف ، ط . مصر ١٩٣٨ ص ٤٣ - المقريزي ، الخطط ، مجلد ١ ص ٢٧٦ .

٢ - المقريزي ، الخطط ، مجلد ١ ص ٢٧٦ .

٣ - نفس المرجع ص ٣٠٠ .

حاملة المتاجر المغربية إليها ، كما ذكر أن هذه السفن كانت تسير بحذاء الساحل الشمالي لافريقية ، إلى أن تصل إلى ثغر الاسكندرية [1] . كذلك ذكر الرحالة الفارسي ناصر خسرو ، أن بحر الاسكندرية يمتد حتى القيروان [2] . ولعل ذلك يفسر السبب في بداية تأصل التقاليد المغربية في جميع مناحي الحياة في الاسكندرية ، أدبية ومادية ، وبداية وفود أئمة المغرب والاندلس إلى الثغر الاسكندري، ومنهم الفقيه أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف الطرطوشي الأندلسي ، الذي نزل بالاسكندرية في سنة ٥٢٠ هـ ، ومنهم بعض أفراد من أسرة ابن حديدي ، وعلى رأسهم القاضي مكين الدولة أحمد بن عبد المجيد بن حديدي، وكانت هذه الاسرة من الأسرات البارزة في طليطلة فيعصر الطوائف. وقد تولى أفرادها أهم مناصب مملكة طليطلة ، وكان منهم أحمد بن حديدي ، الذي أقام مسجد الباب المردوم من ماله الخاص [3] .

وكانت المتاجر تنقل من النيل عبر خليج الاسكندرية الى الثغر ، ثم تنقل على ظهور الابل من باب البهار (باب العمود) حتى الميناء ، ومن هناك تشحن على السفن إلى شرق وغرب البحر المتوسط ، ولهذا السبب اهتم الفاطميون بتطهير ترعة الخليج من الرواسب الطينية . وقد ذكر المقريزي ان الحاكم بأمر الله أبا منصور بن العزيز ، أطلق لحفر خليج الاسكندرية في سنة ٤٠٤ هـ ، ألف دينار ، فحفر الخليج كله [4] ، وان كان يبدو أن هذا الخليج ، قد طمر من جديد بالرواسب الطينية ، في عهد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله ، فقد ذكر الرحالة الفارسي ناصر خسرو ، أن ماء الشرب في الاسكندرية من المطر [5] . ويصف

١ – ابو عبيد الله البكري ، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، نشره دي سلان ، الجزائر ١٩١١ ص ٨٦ .
٢ – ناصر خسرو ، سفرنامه ص ٤٤ .
٣ – انظر مقالي مسجد المدجنين بطليطلة ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٥٧ ص ٧٨ – وكتابي تاريخ الاسكندرية ، ص ٥٩ ، ملحوظة رقم ٣ .
٤ – المقريزي ، الخطط ، مجلد ١ ص ٣٠٠ .
٥ – ناصر خسرو ، سفرنامه . ص ٤٤ .

الشريف الادريسي ازدهار الاسكندرية في هذا العصر ، فيذكر حصانة أسوارها ، ورواج تجارتها ، وعظم عمرانها ، ويشيد بمنشآتها [١].

وهكذا تقدمت الاسكندرية من الناحية الاقتصادية تقدماً يشهد به قول غليوم الصوري أنها أصبحت « سوق العالمين » [٢] . ولهذا السبب شهدت الاسكندرية أول مرة منذ الفتح العربي ، ازدهاراً عمرانياً لم تشهده منذ العصر البطلمي ، إذ عمرت بالمنشآت الفخمة ، والأبنية الجليلة ، فأقيمت بها المدارس ، والمساجد ، والحصون ، والقصور. ومن هذه القصور قصر مكين الدولة أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن حديد ، قاضي الاسكندرية في عصر الخليفة الآمر بأحكام الله ، وكان من القصور الكبرى في المدينة. ومن المساجد التي أقيمت في الاسكندرية في هذا العصر ، جامع العطارين ، الذي جدده امير الجيوش بدر الجمالي ، وزير الخليفة المستنصر ، من مال المصادرات ، أي المال الذي فرضه على الثائرين من اهل الاسكندرية سنة ٤٧٧ هـ ، ومسجد الفقيه ابو بكر محمد بن الوليد بن خلف الطرطوشي ، الذي أقامه من مال الديوان السكندري سنة ٥١٠ هـ ، ويقع هذا المسجد خارج باب البحر [٣] . وقد ضاعت معالمه في الوقت الحاضر ، ومسجد المؤتمن الذي شيده نظام الدين أبو تراب حيدرة ، في المحجة العظمى ، سنة ٥١١ هـ. ومن المدارس التي أسست في العصر الفاطمي مدرستان سنيتان مشهورتان هما : المدرسة العوفية ، التي اقيمت سنة ٥٣٣ هـ ، والمدرسة السلفية ، التي أسست سنة

---

١ – يقول الادريسي : « وهي حصينة الاسوار ، نامية الاشجار ، جليلة المقدار ، كثيرة العمارة ، رابحة التجارة ، شامخة البناء . رائعة المغنى ، شوارعها فساح ، وعقائد بنيانها صحاح ، وفرش دورها بالرخام والمرمر ، وحني ابنيتها بالعمد المشمر ، وأسواقها كثيرة الاتساع ، ومزارعها واسعة الانتفاع ، والنيل الغربي يدخل منها تحت أقبية دورها كلها ، وتتصل دواميس بعضها ببعض ، وهي في ذاتها كثيرة الضياء ، متقنة الاشياء ... » الشريف الادريسي . وصف المغرب والاندلس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الافاق ، دوزي ودي غويه ، ليدن ١٨٦٦ ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

٢ – Heyd, Histoire du commerce du levant, t. I Leipzig, 1885, P. 378

٣ – جمال الدين الشيال ، الاسكندرية ، ص ٢١٧ – كتابي تاريخ الاسكندرية ، ص ٦٣ .

٥٤٤ هـ [١] . وقد اندثرت معظم هذه الآثار التي اقيمت في العصر الفاطمي ، ولم يتبق منها إلا بقايا ضئيلة منها : ضريح الشيخ أبي بكر الطرطوشي، الذي أقيم في الطرف الغربي للاسكندرية ، قبالة البـاب الأخضر ، وهو البـاب الغربي من أبوابها [٢] ، بجوار الجامع الكبير الغربي ، الذي بناه عمرو بن العاص ، عندما فتح الاسكندرية سنة ٢١ هـ ، وتحدثنا عنه في الصفحات السـابقة . ونشاهد آثار هذا الضريح اليوم بالقرب من نهاية شارع الباب الاخضر بمنطقة الجمرك ، لصق مسجد يبدو أنه أقيم على موضع الجامع الكبير المذكور ، ويتكون الضريح من ستـة أساطين ، ترتكز عقودها على عمودين مركزيين ، تاجاهما من الطراز الكورنثي، ويبدو أنهما اتخذا من بناء قديم . ويربط بين العقود بعضها ببعض أوتار خشبية . أما المحراب فجوفة محفورة في الجدار القبلي ، ووجهه على شكل عقد من الطراز الفاطمي .

أما المساجد التي أقيمت في هذا العصر ، فقد اندثرت ، ولم يتبق منها سوى اللوحة الانشائية لجامع العطارين وقد سجل عليها اسم المنشيء وتاريخ الانشاء .

وقد ظلت شوارع الاسكندرية في العصر الفاطمي تحتفظ بتخطيطها القديم من حيث الاستقامة ، والاتساع ، والجمال . فقد وصفها الرحـالة الاندلسي ابن سعيد ، فقال : « الغـالب على تونس البنـاء بالحجـارة كالاسكندريـة ، ولكن الاسكندريـة افسح شوارع ، وأبسط ، وأبدع » [٣] . كذلك وصفها الجغرافي الشريف الادريسي في هذا العصر بأن شوارعها فساح [٤] .

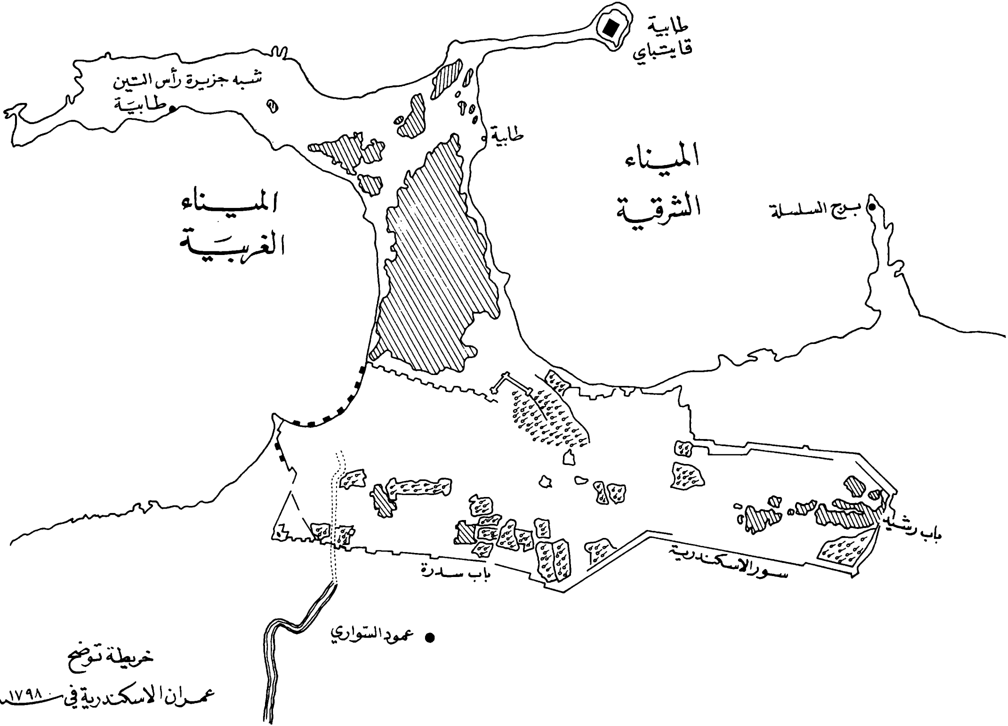
---

١ – انظر التفاصيل في كتابي تاريخ الاسكندرية ص ٥٨ – ٦٤ – ومقالي عن الاسكندرية في كتاب محافظة الاسكندرية ص ٢٩١ .

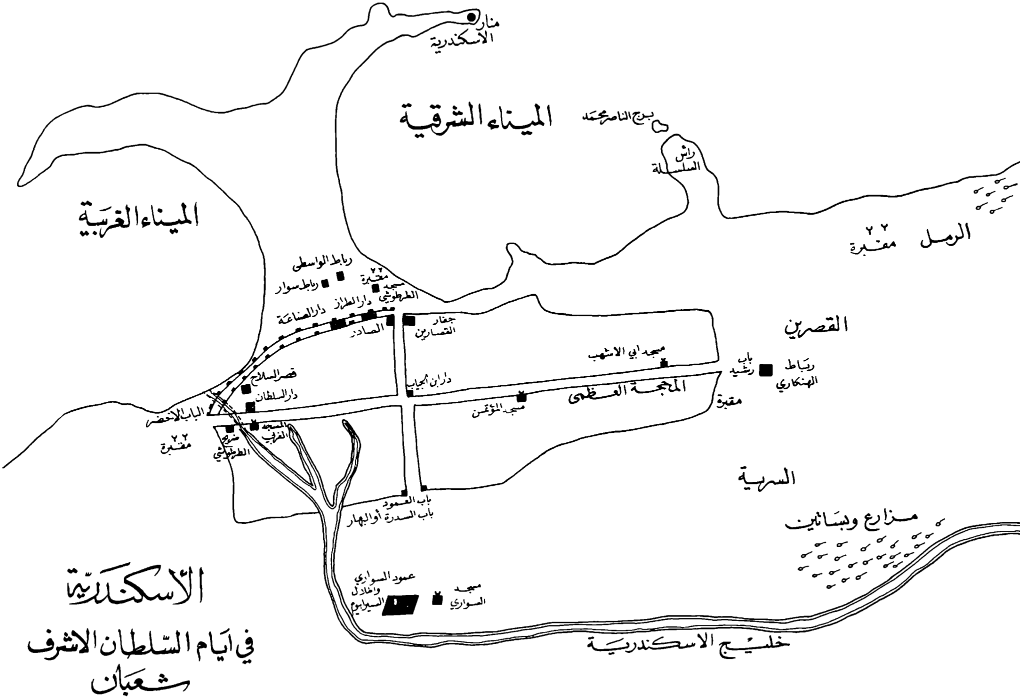
٢ – المقري، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، ط محيي الدين عبدالحميد ج ٢ ص ٢٩٣

٣ – نفس المرجع ، ج ١ ص ١٩٤ .

٤ – الشريف الادريسي ، وصف المغرب والاندلس ص ١٣٨ .



خريطة توضح
عمران الاسكندرية في سنة ١٧٩٨



الأسكندرية
في أيام السلطان الأشرف
شعبان
منار الأسكندرية
الميناء الشرقية
الميناء الغربية
برج الناصر محمد
راس السلسلة
الرمل
مقبرة
رباط الواسطى
رباط سوار
مقبرة
مسجد الطرطوشي
دار الطراز
دار الصناعة
الصادر
جفار القصارين
القصرين
مسجد ابي الاشهب
باب رشيد
رباط الهنكاري
قصر السلاح
دار السلطان
دار ابن الحباب
المحجة العظمى
مسجد المؤمن
مقبرة
الباب الأخضر
مقبرة
ضريح الطرطوشي
المسجد الغربي
السرية
باب العمود
باب السدرة أو البهار
مزارع وبساتين
عمود السواري واطلال السيرابيوم
مسجد السواري
خليج الاسكندرية

خامساً ــ في العصر الايوبي

اصبحت الاسكندرية في العصر الايوبي سوقاً هاماً للتجارة العالمية ، فإليها كانت تتدفق معظم منتجات الشرق من طيب، ويواقيت ، وعطور ، وتوابل وغيرها من المنتجات الشرقية . وقد ذهل بعض الرحالة الاوروبيين أمثال ، بنيامين التطيلي ، وبرخارد الذي قدم الى مصر سنة ١١٧٥ كسفير للامبراطور فردريك برباروسة، لكميات التوابل الهائلة التي كانت تحملها السفن في النيل الى ثغر الاسكندرية [١] . وكان نتيجة ازدهار التجارة في الاسكندرية ، ان كثر عدد التجار الافرنج في ثغر الاسكندرية ، ويخبرنا المقريزي انه اجتمع منهم نحو ثلاثة آلاف سنة ٦١٢ هـ، في عهد الملك العادل [٢] ، كذلك أقامت الجمهوريات الايطالية لها فنادق في المدينة ، وقد ذكر بنيامين التطيلي ١٨ دولة كانت تتعامل مع الاسكندرية ، ولكل من هذه الدول فندق في الثغر [٣] . ولكن هايد لا يوافق على مثل هذا العدد الكبير من الدول ، ولا يصدق الاحصاء الذي اورده بنيامين التطيلي [٤] . وكانت للبندقية بوجه خاص جالية كبير في الثغر يدير شؤونها قنصل ، وكان في الحي البندقي فندقان وحمام ومخبز وكنيسة [٥] وقد وصف الرحالة الاندلسي ابن جبير ما اصاب الاسكندرية من نهضة اقتصادية واتساع في العمران ، فذكر انها مدينة حسنة الموقع ، واسعة الابنية ، فسيحة المسالك أبنيتها عالية واسواقها عامرة، وكانت تصل المدينة بالنيل ترعة ، تتفرع قنواتها داخل شوارع المدينة ، وتتوزع الى الدور والمنازل [٦] . وقد كانت تحوط هذه

---

١ – Heyd, op. cit. P. 384.

٢ – المقريزي ، الخطط ، مجلد ١ ص ٣٠٦

٣ – Viaje de Benjamin de Tudela, Madrid, 1918, P. 115.

٤ – Heyd. op. cit. 389.

٥ – شارل ديل ، البندقية جمهورية ارستقراطية ، ترجمة الدكتور احمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٥٩ .

٦ – ابن جبير ، الرحلة ، ص ٤١ .

الترعة بساتين ومتنزهات ، وصفها الشاعر ظافر الحداد بقوله :

وعشية أهدت لعينك منظراً جاء السرور به لقلبك وافدا
روضاً كمخضر العذار وجدولا نقشت عليه يد الشمال مباردا
والنخل كالغيد الحسان تزينت ولبسن من أثمارهن قلائدا [1]

وكانت منطقة الرمل بظاهر الاسكندرية تزخر بالقصور السامقة الارتفاع ، وصل إلينا من أسمائها اسم قصر ، هو قصر بني خليف ، وكان قصراً راسخ البناء ، عظيم الارتفاع « قد رسا بناؤه ، وسما ارتفاعه » ، ويصفه ابن قلاقس السكندري المتوفي سنة ٥٦٥ هـ . بقوله :

قصر بمدرجة النسيم تحدثت فيه الرياض بسرها المستور
خفض الخورنق والسدير سموه وثنى قصور الروم ذات قصور
لاث الغمام عمامة مسكية وأقام في أرض من الكافور [2]

وعلى الرغم مما قاسته الاسكندرية في عهد الدولة الفاطمية ، وعصر الدولة الأيوبية ، من فتن وثورات [3] ، ومن غارات بحرية كانت تتهددها [4] ، ومن مجاعات عظمى اصابتها [5] ، فقد ازدهر عمران المدينة ، وزخرت بمختلف أنواع

١ – محمد زغلول سلام ، الادب في عصر صلاح الدين ، الاسكندرية ، ١٩٥٩ ، ص ١٧٥ .
٢ – المقري ، نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٢٤٠ .
٣ – قامت في الاسكندرية عدة ثورات في أواخر العصر الفاطمي ، ففيها ثار الاوحد ابن امير الجيوش بدر الجمالي سنة ٤٧٧ هـ ، على أبيه ، وفيها ثار نزار ابن الخليفة المستنصر بالله ، على وزير ابيه الافضل شاهنشاه سنة ٤٨٧ هـ ، فضربها الأفضل بالمجانيق ، وقضى على الفتنة.
٤ – حاصرها شاور والفرنجة ثلاثة أشهر ، براً وبحراً ، في سنة ٥٦٢ هـ ، كما حاصرتها جيوش الصقليين لمدة أيام سنة ٥٦٩ هـ .
٥ – ذكر عبد اللطيف البغدادي أن وباء حدث في الاسكندرية في سنة ٥٩٣ هـ ، كان يموت منه في اليوم الواحد سبعمائة شخص ، وان طائفة كبيرة من أهلها تزيد على عشرين الفاً ، انتقلوا الى برقة وأعمالها ، فعمروها وقطنوها . (انظر عبد اللطيف البغدادي ، كتاب الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، القاهرة ١٢٨٦ هـ ، ص ٥٨ .)

المنشآت في عصر الدولة الأيوبية ، واهتم صلاح الدين بها اهتماماً بالغاً ، إذ كان يحفظ لأهلها ما أبدوه من ضروب الشجاعة والإقدام ، وما أظهروه من غيرة على الإسلام ، عندما حاصرت قوات شاور والصليبيين، صلاح الدين، في هذا الثغر ، طوال ثلاثة أشهر في سنة ٥٦٢ هـ . فزارهـا في سنة ٥٦٦ هـ ، ورمم اسوارهـا وحصونها [١] . ويذكر المقريزي أن قراجا ، والي الاسكندرية في أيام صلاح الدين، كسر أربعمائة عمود كانت تحيط بعمود السواري، ورماها بشاطىء البحر، ليوعر على العدو سلوكه إذا قدم [٢] ، أو ليكسر سورة الأمواج ، ويخفف حدتها عن سور المدينـة ، أو ليمنع مراكب العدو أن تسنـد إلى هذا السور [٣] . وقد شاهد الرحـالة الشيخ عبد اللطيف البغدادي هذه الأعمدة المتكسرة ، وحكم على هذا العمل بأنـه « من عبث الولدان ، ومن فعل من لا يفرق بين المصلحـة والمفسدة» [٤] .وعلى هذا النحو نالت المدينة من رعاية السلطان صلاح الدين ما جعلها تقوى على رد اعتداء المعتدين والمغيرين عليها من البحر . فلما قدم أسطول صقلية في ٢٦ من ذي الحجة سنـة ٥٦٩ هـ، انهزم بعد اربعـة أيام من وصوله ، وفشل الصقليون في اقتحام سور المدينـة ، وردهم أهل الاسكندرية ورجال حاميتهـا منهزمين . وفي ذلك يقول أبو شامـة في الروضتين : « إن أول الأسطول وصل وقت الظهر ، ولم يزل متواصلاً متكاملاً الى وقت العصر ، وكان ذلك على حـين غفلة من المتوكلين بالنظر ، لا على حين خفاء من الخبر ، فأمر ذلـك الاسطول كان اشتهر ، وروع به ابن عبد المؤمن في البلاد المغربية ، وهدد به الجزائر الروميـة صاحب قسطنطينية ، فشوهد بالثغر من وفور عدتـه ، وكثرة عدده ، وعظيم الهمة به، وفرط الاستكثار منه ، ما ملأ البحر ، واشتد به الامر ، فحمى اهل

---

١ – المقريزي ، الخطط ، مجلد ٢، ص ١٧١ .

٢ – نفس المرجع ص ٢٨٠ – ويقول صاحب الروضتين : « وعم أهلها باحسانه خير كثير ، وأمر بعمارة اسوارها وابراجها » ، الروضتين ، ج ١ ص ١٩١ .

٣ – عبد اللطيف البغدادي ، كتاب الإفادة والاعتبار ص ٢٨ .

٤ – نفس المرجع ص ٢٨ .

الثغر عليهم البر. ثم اشير عليهم بأن يقربوا من السور، فأمكن الاسطول النزول، فاستنزلوا خيولهم من الطرائد ، وراجلتهم من المراكب ، فكانت الخيل ألفاً وخمسمائة رأس ، وكانوا ثلاثين الف مقاتل ، ما بين فارس وراجل ، وكانت عدة الطرائد ستة وثلاثين طريدة تحمل الخيل ، وكان معهم مائتا سفين ، في كل سفين مائة وخمسون راجلاً ، وكانت عدة السفن التي تحمل آلات الحرب والحصار من الاخشاب الكبار وغيرها ، ست سفن، ودارت المعركة قاسية عنيفة بين الفريقين واستبسل اهل الاسكندرية في الدفاع حتى اجلوهم عن مدينتهم، وجاءت النجدة من صلاح الدين ، فأفلت القبرصيون [1]، ولم يتمكنوا من البلد » [2].

وفي رمضان سنة ٥٧٢ هـ كانت زيارة السلطان صلاح الدين الثانية الى مدينة الاسكندرية . وفي اثناء مقامه بالثغر ، عمر الاسطول [3] الراسي في شواطئها ، وافرد له ديواناً خاصاً سماه ديوان الاسطول .

فقد ذكر ابو شامة في الروضتين ، انه لما نوى المقام في الاسكندرية ، « رأى الاسطول قد أخلقت سفنه ، وتغيرت آلاته ، فأمر بتعمير الاسطول ، وجمع له من الاخشاب والصناع اشياء كثيرة ، ولما تم عمل المراكب ، امر بحمل الآلات، فنقل من السلاح والعدد ما يحتاج الاسطول اليه ، وشحنه بالرجال ، وولى فيه احد اصحابه، وأفرد له اقطاعاً مخصوصاً ، وديواناً مفرداً » [4]. ثم زارها في سنة ٥٧٦ هـ ، وانشأ بها مارستاناً ، وداراً للمغاربة ، ومدرسة، وجدد حفر الخليج، ونقل فوهته[5]. وذكر ابن واصل انه خيم في هذه الزيارة الاخيرة عند السواري، « وشاهد الاسوار التي جددها ، وامر بالاتمام والاهتمام » [6] . وقد وصف الرحالة

---

١ – لم يكن اصحاب هذه الحملة من القبارصة وإنما من الصقليين .
٢ – ابو شامة ، الروضتين في أخبار الدولتين، ج ١ ، ص ٢٣٤، ٢٣٥، القاهرة ١٢٨٧ هـ.
٣ – الخطط ، ج ٣ ، ص ١٦٨ .
٤ – ابو شامة ، الروضتين في اخبار الدولتين ، ج ١ ص ٢٦٩ .
٥ – الخطط ، ج ٣ ، ص ١٦٩ .
٦ – ابن واصل ، مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ، ج ٢ ص ١١٢ .

الأندلسي ابن جبير هذه المدرسة التي شيدها صلاح الدين بقوله «...ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة الى سلطانه ، المدارس والمحارس الموضوعة فيه ، لاهل الطلب والتعبد ، يفدون من الاقطار النائية، فيلقى كل واحد منهم مسكناً يأوي اليه ، ومدرساً يعلمه الفن الذي يريد تعليمه ، واجراء يقوم به في جميع احواله . واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين ، حتى امر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا الى ذلك ، ونصب لهم مارستاناً لعلاج من مرض منهم ، ووكل بهم اطباء يتفقدون احوالهم، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء »[١].

١ – رحلة ابن جبير ، ص ٤٢ .

الفصل الخامس

تقدم العمران السكندري في عصر دولة المماليك البحرية

يعتبر عصر دولة المماليك البحرية ، العصر الذهبي لمدينة الاسكندرية ، فقد بلغت ذروة تقدمها العمراني نتيجة للنهضة الاقتصادية والعلمية التي لم تشهدها المدينة في اي عصر من عصورها الاسلامية السابقة ، ونتيجة للاهتمام الكبير الذي أولاها اياه الملوك والسلاطين ، بعد ان اصبحت محط أنظار العالم ، خاصة بعد أن فقدت دمياط أهميتها الحربية والاقتصادية [1] . واصبحت مدينة الاسكندرية أهم ثغور مصر ، وأعظم مركز تجاري في العالم الاسلامي ، وهذا هو السبب الذي حظيت من أجله بعناية السلاطين ، فزودوها بالقلاع والتحصينات ، ثم حولها السلطان الاشرف شعبان إلى دار نيابة ، بعد انغزاها بطرس دي لوزنيان غزوته المعروفة بغزوة القبارصة في محرم ٧٦٧ هـ .

وكان للثروات الضخمة التي تدفقت على الاسكندرية من التجارة الشرقية والغربية أثر كبير في ازدهار عمرانها وتقدمه تقدماً يشهد به الرحالة المسلمون والمسيحيون على السواء ممن زاروا المدينة في هذا العصر ، وليس أدل على هذا الازدهار من كثرة المنشآت المعمارية في هذا العصر ، وهي منشآت تتفق من جهة

---

١ – ذكر المقريزي ان المماليك البحرية بعد جلاء جيوش الفرنج من دمياط في ٣ صفر سنة ٦٤٨ ، اتفقوا على تخريب مدينة دمياط خوفاً من مسير الفرنج اليها مرة اخرى ، فسيروا اليها الحجارين والفعلة ، فوقع الهدم في اسوارها في ٨ شعبان سنة ٦٤٨ « حتى خربت كلها ، ومحيت آثارها ، ولم يبق منها سوى الجامع » . وفي سنة ٦٥٩ هـ بعث الظاهر بيبرس البندقداري بعدد من الحجارين لردم فم بحر دمياط ، فمضوا ، وقطعوا كثيراً من القرابيص ، والقوها في نهر النيل عند مصبه بالبحر ، حتى ضاق ، وتعذر دخول المراكب منه الى دمياط (المقريزي ، الخطط ، ، مجلد ١ ص ٢٩٣) .

مع الانتعاش الاقتصادي الذي اصابته المدينة، بسبب تحول طرق التجارة إليها، مثل الفنادق، والوكالات، ودور الصناعة، وتعكس من جهة أخرى روح الجهاد التي سادت المدينة في هذا العصر ، مثل الحصون ، والمساجد ، والاربطة والخانقاوات ، وتدل من جهة ثالثة على تألق الحركة العلمية ، كدور الحديث التي كانت في الحق مدارس في الفقه والتفسير والحديث والأصول . اما عن الانتعاش الاقتصادي الاسكندري فيرجع الى الرسوم الباهظة التي فرضتها الدولة على السلع والمتاجر التي يأتي بها التجار الافرنج، وقد حاولت البابوية ان تتدخل دينياً لدي الدول الاوروبية عقب سقوط مدينة عكا في ايدي المماليك ، لقطع كل علاقاتها التجارية مع مصر حتى تقضي بذلك على اهم مواردها المالية ، فحرمت بيع اي شيء للعرب قابل لان يكون اداة لتسليح المسلمين ، كالخشب ، والحديد ، وهما مادتان لازمتان لصناعة السفن وآلات الحرب [1] .

غير ان هذه المحاولات التي قام بها البابوات، بقصد حرمان السلطان من الموارد المالية التي يجنيها من التجارة الغربية ، لم تلبث ان باءت بالفشل لان الدول والجمهوريات الاوروبية التي تتعامل مع مصر ، لم تكن تستطيع الاستغناء عن حاصلات الشرق التي تأتي عن طريق واحد، هو طريق دولة المماليك. وظلت هذه الدول تعمل على كسب مودة سلاطين مصر بكافة السبل ، وعقد اكثر المعاهدات التجارية فائدة، وابعدها اثراً، وحرصت هذه الدول على ان يمثلها في الاسكندرية قناصل ، يرعون شؤون تجارها ، كما اقامت لها في الثغر الاسكندري فنادق

---

١ ـ حرم البابا نيقولاس الرابع تعامل الدول الاوروبية مع سلاطين مصر ، وعلى الاخص جمهورية البندقية ، وجنوة ، وكذلك فعل بونيفاس الثامن ، وبنوا الحادي عشر، وكليمان الخامس. وقد عمد هذا الاخير الى تسيير سفن حربية عهد بقيادتها الى فرسان نظام القديس يوحنا ، وهدفها الترصد لسفن المسلمين ، او السفن المتجهة الى مصر والتي تتعامل معها . وكان مقر هذه السفن جزيرة رودس . وقد كرس بعض قادة البحر من غلاة المسيحية حياتهم لخدمة كنيسة روما ومنهم بوجارو (لعله جنوي) الذي كان يترصد السفن المتجهة الى ثغرا لاسكندرية (انظر : Heyd, op. cit. t. II, P. 23-30) .

خاصة بهؤلاء التجار . ويشهد هايد نفسه بانه على الرغم من ان القرارات البابوية التي تقضي بتحريم التعامل التجاري مع مصر قد وجدت لها أصداء ، فان مدينة الاسكندرية لم تفقد في هذه الفترة المضطربة على الاطلاق اهميتها التجارية التي أهلها لها موقعها الجغرافي العظيم [1]

اما عن تقدم الحركة العلمية في عصر المماليك فقد تحقق نتيجة لتوافد العلماء المسلمين من مشارق الارض ومغاربها اليها منذ العصر الفاطمي [2] ، كما اشتهر في الاسكندرية عالمان كبيران في الحديث هما ابو طاهر السلفي وابن عوف ، وعليهما أخذ عدد كبير من العلماء امثال ابن قلاقس الاسكندري ، والحافظ علي ابن مفضل اللخمي الاسكندراني، وكان لانشاء دار المغاربة ومدرستهم على يدي صلاح الدين اثر كبير في وفود جمهور كبير من علماء المغرب والاندلس ونزولهم مدينة الاسكندرية ، ونخص بالذكر من الاندلسيين ابو عبد الله محمد بن سليمان المعافري الشاطبي (توفي في ٦٦٢ هـ)، وأبوالعباس احمد بن عمر بن محمد الانصاري المرسي (توفي في ٦٨٦ هـ) ، ومن المغاربة الشيخ ابو الحسن الشاذلي الذي نزل الاسكندرية سنة ٦٤٢ هـ وأسس فيها مدرسة صوفية ، اشتهرت في الاسكندرية، حمل لواءها من بعده تلميذه وخليفته ابو العباس المرسي ، ثم ابن عطاء الله السكندري من بعده ، وهم اركان المدرسة الشاذلية [3] .

والى جانب هذه المدرسة الصوفية وجدت في الاسكندرية مدرسة للفقهاء المالكية ، أسسها الشيخ ابو الحسن الابياري (توفي في ٦١٢) ، وحمل لواءها من

---

١ – Heyd, op. cit. P. 50.

٢ – في هذا العصر نزل الاسكندرية الفقيه ابو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف الطرطوشي، احد كبار ائمة الاندلس ، كما نزلها عدد كبير من العلماء ، كان لهم اثر في نهضتها العلمية ، ونخص بالذكر منهم ابن ابي مطر وابنه ، وعليهما سمع خلف بن محمد الخولاني ، ومحمد بن ميسر ، وعبدالرحمن بن عمرو العلاف، وابن الحداد، وغيرهم (انظر حسن عبدالوهاب، الاسكندرية في العصر الاسلامي ، مجلة الكتاب، القاهرة ١٩٤٦ ص ٣٨١ – ٣٨٢).

٣ – ابو الوفا الغنيمي التفتازاني ، ابن عطا الله السكندري ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٤٦ .

بعده عدد من تلاميذه. وقد أحصى الاستاذ حسن عبدالوهاب تراجم لعلماء وادباء سكندريين، او توطنوا في الاسكندرية، ابتداء من النصف الثاني من القرن السادس الهجري، حتى نهاية القرن الثامن، فوجد انها بلغت نحو ٢٥٠ ترجمة [١]، منهم عبد الكريم بن عطاء الله السكندري، ويحي بن الصواف السكندري، ومحمد بن قاسم النويري صاحب « الالمام بالاعلام ».

ويمكننا ان نضيف الى الاسباب السابقة لازدهار العمران السكندري سبباً آخر، هو قيام سلاطين المماليك بحفر خليج الاسكندرية وتطهيره مما كان يتراكم فيه من رمال ورواسب طينية. ففي سنة ٦٦٢ هـ بعث السلطان الظاهر بيبرس الامير علياً، امير جاندار، لحفر خليج الاسكندرية، وقد امتلأت فوهته بالطين، وقل الماء في الاسكندرية، فابتدأ بالحفر من النقيدي، وانشأ هناك مسجداً، وتولى مباشرة هذا الحفر المعلم تعاسيف ناظر الدواوين. وفي سنة ٦٦٤ هـ بعث السلطان، لحفر هذا الخليج، الامير علم الدين سنجر المسروري، ثم سار السلطان بعامة الأمراء والاجناد، وباشر الحفر بنفسه، وعمل فيه الامراء، وجميع الناس، الى ان زالت الرمال التي كانت على الساحل، بين النقيدي وفم الخليج [٢]، وقد ترك اسمه على قرية تسمى الضهرية بدلاً من منية ببيج، كما سميت ترعته التي قام بتطهيرها بالظاهرية [٣].

غير ان هذه الترعة لم تلبث ان سدت من جديد، واضطر اهل الاسكندرية الى الاعتماد على الصهاريج التي يخزنون فيها المياه، حتى كانت سنة ٧١٠ هـ، في عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، اذ «قدم ألامير بدر بكتوت الخزنداري المعروف بامير شكار، متولي الاسكندرية، الى قلعة الجبل، وحسن للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون حفره، وذكر له ما في ذلك من المنافع، أولها

١ – حسن عبدالوهاب، الاسكندرية ص ٤٨٩ – ٣٩٢.
٢ – المقريزي، الخطط، مجلد ١ ص ٣٠٠.
٣ – عمر طوسون، تاريخ خليج الاسكندرية القديم، الاسكندرية ١٩٤٢، ص ٢٣ – ٢٤.

حمل الغلال ، واصناف المتجر الى الاسكندرية في المراكب ، وفي ذلك توفير للكلف ، وزيادة في مال الديوان، وثانيها عمارة ماعلى حافتي الخليج من الاراضي، بانشاء الضياع والسواقي ، فينمو الخراج بهذا نمواً كثيراً ، وثالثها انتفاع الناس في عمارة بساتينهم ، وشرب مائه دائماً ، فأعجب السلطان ذلك، وندب الامير بدر الدين محمد بن كند عدي بن الوزيري مع بكتوت ، لعمله [١] ، ثم امر السلطان باحضار المتولين للحفر ، وكتب لولاة الاعمال بالوقوف في العمل، فسخروا لذلك نحو ٤٠ الف رجل ، ثم وصل مجراه بفرع رشيد ، فعظم به النفع ، واستغنى اهل الاسكندرية عن شرب ماء الصهاريج ، وبادروا للعمارة على جانبي الخليج ، فلم يمض غير قليل حتى استجد على جانبي الخليج ما يزيد على مائة الف فدان . زرعت بعد ما كانت سباخاً ، وما ينيف على ستمائة ساقية ، برسم القلقاس ، والنيلة ، والسمسم ، وفوق الاربعين ضيعة ، وأزيد من الف غيط بالاسكندرية، وعمرت منه عدة بلاد كثيرة ، وتحول عالم عظيم الى سكنى ما استجد عليه [٢] ». واقام بكتوت الارصفة على ضفتي مجرى هذا الخليج ، ودك اساسه بالحجر والرصاص ، ثم أقام على الخليج ثلاثين قنطرة، وشيد خاناً ، ينزل فيه الناس ، وقد استعان في كل ذلك بحجارة قصر قديم كان خارج الاسكندرية ، سوى ما وجده من الرصاص في قناة باسفل هذا القصر ، تنتهي الى قرب البحر. ونلاحظ ان هذه الترعة ظلت تعمل حتى سنة ٧٧٠ هـ ، ثم انقطعت مياهها ، وانطمت بالرمال ، فتلفت اكثر بساتين الاسكندرية ، وخربت، وتلاشى كثير من القرى التي كانت تحف بضفتي خليج الاسكندرية .

لهذه الاسباب السابقة جميعاً، اتسعت رقعة مدينة الاسكندرية بازديادالعمران فيها ، واصبحت تضم أرباضاً خارجية الى الشرق والجنوب ، فمن وصف النويري لموكب السلطان الاشرف شعبان في الاسكندرية ، بعد غزوة القبارصة ، يتبين

١ – المقريزي ، الخطط ، مجلد ١ ص ٣٠١ .
٢ – نفس المرجع ، ص ٣٠١ .

لنا ان المنطقة الواقعة الى الجنوب الشرقي من الاسكندرية قد عمرت، وأصبحت تؤلف ربضاً يعرف بالسرية ، كما عمرت المنطقة الواقعة بحذاء الساحل ، شرقي الاسكندرية، واصبحت ربضاً يقع شرقي ظاهر الاسكندرية ، هذا بالاضافة الى ان المناطق المجاورة لباب البحر وباب رشيد ، بظاهر الاسكندرية اكتظت بالاضرحة والمساجد، مثل مسجد وضريح ابي العباس المرسي، ورباط الواسطي، ومسجد الطرطوشي ، خارج باب البحر ، ورباط الهكاري ، بمنطقة القصرين خارج باب رشيد .

ونستدل من وصف النويري لموكب السلطان الملك الاشرف شعبان ، ان المدينة احتفظت الى حد كبير بنظامها التخطيطي القديم ، فقد ظلت المحجة العظمى تخترق المدينة، ممتدة من باب رشيد الى باب القرافة أو الباب الاخضر ، المعروف بالمطرق ، وكان يقطعها طريق آخر يتجه عمودياً على سور البحر ، ويصل باب البحر بباب السدرة، ويقوم عند نقطة التقاء الشارعين مسجد يعرف باسم مسجد ابي الاشهب . ونستدل ايضاً من وصف النويري للموكب ، ان داراً تعرف بدار ابن الجياب كانت تقع في الطريق المؤدية الى البحر ، وان جفار القصارين كان يقع قريباً منها مما يلي البحر ، وينتقل بعد ذلك الى الصادر ، وهو الدائرة الجمركية ، وكان يقع لصق باب البحر مما يلي المدينة ، وكان هذا الباب يطل مباشرة على الميناء الشرقية، وهي الميناء الخاصة بالسفن الاجنبية. ونلاحظ ان السور الشمالي للاسكندرية الممتد من باب البحر الى الباب الاخضر غرباً هو سور مزدوج او سوران ، احدهما يلي الآخر [1] ، يفصل بينهما طريق فسيح ، اقيمت فيه بالقرب من باب البحر دار للطراز ، وبجوارها دار لصناعة الشواني الغزوانية ، والمجانيق الشيطانية [2] . ويبدو ان هذا السور المزدوج اقيم مباشرة عقب جلاء القبارصة عن الاسكندرية،في محرم سنة ٧٦٧ هـ، ونستند في ذلك الى

١ – انظر كتابي تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي ص ١١٨ – ١٢٤ .

٢ – النويري ، الالمام بالاعلام صفحة ١٤٤ ظ ، وكتابي الاسكندرية وحضارتها ص ٢٠٢ .

ما ذكره النويري عند وصفه لزيارة الاشرف شعبان للاسكندرية في سنة ٧٧٠هـ، اذ شاهد « قلاع السور وابراجـه التي تلي البحر مزينة بالعدد، من الاسلحـة، والاتراس، والشطفات الحرير الملونة، والاعلام التي تخفق بالرياح، تبتهج لرؤيتها الابصار، وترتاح الارواح، ثم ان السلطان شاهد المكان الذي صعدت منه العلوج السور، والخندق الجديد الذى انشأه الامير صلاح الدين بن عرام مكان صعودهم ولم يكن قبل ذلك المكان خندقاً، بل كان الانسان يأتي ماشياً الى ان يلتصق بالسور »[1]. كذلـك نستند الى ما ورد في النجوم الزاهرة اذ يقول ابن تغري بردى « ... جاء الخبر بأن العدو المخذول لما سمعوا بقدوم السلطان، تركوا الاسكندرية وهربوا، ففرح الناس بذلك، ورسم السلطان بعمارة ما تهدم من الاسكندرية، واصلاح اسوارها، واخلع السلطان على الشريف بكتمر بنيـابة الاسكندرية، واعطاه امرة مائة وتقدمة الف، وبكتمر هـذا هو اول نائب ولي نيابة الاسكندرية من النواب[2] ». ويذكر روفون جيست في مقاله بدائرة المعارف الاسلامية، ان هذا السور ظل قائماً حتى سنة ١٨١١، وكان يتألف من جدار خارجي ارتفاعه عشرين قدماً، ووراءه في معظم محيط السور جدار اكثر ارتفاعاً، واشد سمكاً، يبعد عن السور الامامي بمسافة تتراوح ما بـين عشرين قدماً وخمسة وعشرين قدماً، وكان كل من هذين الجـدارين مزود بالأبراج، ويدور بالسور الخارجي خندق يمتلىء بمياه النيل وقت الحاجة[3].

وقد افدنا من وصف النويري للزيارات التي قام بها السلطان الملـك الأشرف شعبان في تحديد بعض المعالم البارزة في المدينة، ومعظمها المباني التي كانت قائمة وقتئذ، قريباً من الباب الاخضر، مثل، قصر السلاح، ومسجده الملحق به، وكان هذا القصر يتألف من قاعـات كثيرة، مملوءة بالعدد والاسلحـة، ومثل

---

١ - النويري، ص ١٤١ ظ.

٢ - ابو المحاسن بن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ١١ ص ٢٩، ٣٠، القاهرة، ١٩٥٠.

٣ - دائرة المعارف الاسلامية، مادة الاسكندرية.

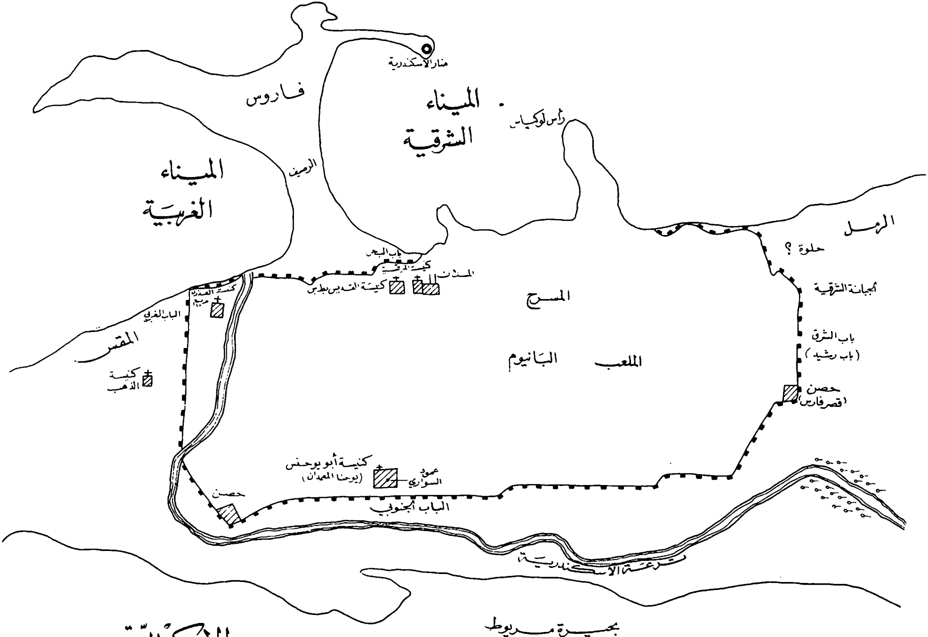
ضريح الشيخ ابي بكر الطرطوشي ، المتوفي سنة ٥٢٠ هـ ، ويقع قريباً من رحبة الجامع الغربي، ومثل دار السلطـان ، وتقع بالقرب من الجامع المذكور ، وهذا القصر يشتمل ، وفقاً لما ذكره غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري ، على دور منسقة ، «وهي عجيبة من عجائب الدنيا ، وبها دار عظيمة ، وبها تخت الملك ، وقيـل انه لم تعمر دار وسعهـا ، انشأها في الاصـل المقوقس ، ثم بعده جوهر الموتفكي، ثم بعده صلاح الدين بن ايوب، ثم بعده الملك الناصر فرج بن برقوق، وبها من الاعمدة الرخام الملونة ، والقياع المفروشة بالرخـام الملون ، والاماكن المزخرفة ، والبساتين الحسنة ، ما يطول شرح وصفه ، وهي مشرفة على البحر المحيط ، لايسكنها الا السلاطين خاصة » [١] .

ونستنتج من وصف النويري لموكب السلطان شعبان، أن سور الاسكندرية ظل يحتفظ بأبوابـه الأربعة التقليديـة وهي باب السدرة (وكان يعرف بباب العمود أو البهـار) ، واليه يشرع طريق المغرب ، وباب رشيد في شرق السور ، وهو الباب الذي كان يدخل منه السلاطين عند زيارتهم للثغر السكندري قادمين من القاهرة عن طريق رشيد، وينفتح باب البحر في السور الشمالي، وباب القرافة او الباب الاخضر في السور الغربي ، وسمي بالقرافة لانه كان يفضي الى جبانـة اسلامية في ظاهر المدينة ، ويعرفه النويري بـاسم المطرق ، ويذكر ابن بطوطة ان هذا الباب لا يفتح الا الجمعة ، فيخرج النـاس منه الى زيارة القبور [٢] . وكان لكل من هذين البـابين الاخيرين ، باب البحر والبـاب الاخضر ، ثلاثة بوابات مكسوة بالحديد [٣]، اثنتان في السور الاساسي الذي يلي المدينة، وبوابة في السور الخارجي الامامي المواجه للبحر ، ويدل على ذلك مـا ذكره النويري في وصف موكب السلطان اذ يقول : « ركب وفتح له الباب الاول والثـاني مما يلي البلد ،

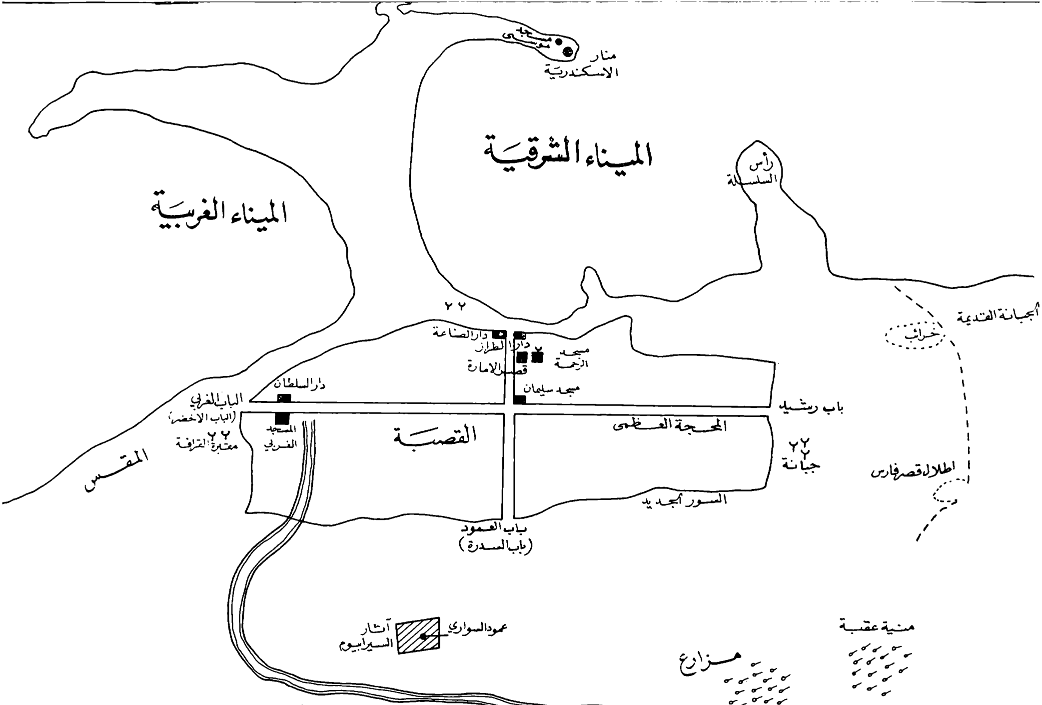
١ – ابن شاهين الظاهري ، زبـدة كشف الممالك وبيـان الطرق والمسالك ، باريس ١٨٩٤ ، ص ٤٠ .

٢ – ابن بطوطة ، الرحلة ، القاهرة ١٩٢٢ م ، ص ١٠ .

٣ – ابن شاهين الظاهري ، ص ٣٩ .



الاسكندرية
عند الفتح العربي



الاسكندرية في عصر احمد بن طولون

وسار به وزيره سيف الدين الاكز المتقدم ذكر ولايته بالاسكندرية بين السورين ، الى ان اتى به دار الطراز »[1]. وقوله ايضاً بعد انتهاء زيارة السلطان لدار الطراز ودار الصناعة ، « ورجع من بين السورين الى ان دخل الاسكندرية من الباب الأخضر » . ونستنتج ايضاً من وصف النويري للموكب السلطاني انه كان يحيط بالسور الشمالي من جهه البحر خندق، وكذلك كان يحيط السور الغربي ،عند الباب الأخضر ، خندق آخر . والى خارج باب البحر كانت تقع اضرحة لجماعة من الصوفية السكندريين ، مثل ضريح ابي العباس المرسي ومسجده، ورباط محمد بن سليمان الشاطبي ، المعروف برباط سوار ، والى الشرق من ضريح ابي العباس كان يقع رباط الشيخ ابو الفتح الواسطي[2]. والى خارج باب رشيد يقوم رباط الهكاري، وهو محمد بن الامير زين الدين ابي المفاخر باخل المتوفي سنة ٦٨٣ هـ .

ويعتبر السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري، (٦٥٨–٦٧٦ هـ)، اول سلاطين دولة المماليك البحرية الذين اهتموا بالاسكندرية اهتماماً خاصاً، فقد زارها اربع مرات ، وكان يترك فيها من الاثر في كل زيارة منها ما يشيد المؤرخون بذكره، ففي الزيارة الاولى سنة ٦٦٠ هـ، أمر بكسوة الجامع الغربي، وعمل قناديله ، وعمارته ، من ماله الخاص [3] ، وفي هذه الزيارة نصحه الشيخ

---

١ – النويري الالمام ورقة ١٤٢ و .

٢ – وفد الشيخ الواسطي الى مصر في مستهل القرن السابع ، وأقام بالاسكندرية ، وبشر بها الطريقة الرفاعية ، ونلاحظ ان هذا العصر يتميز بازدهار الحركة الصوفية ، كالطريقة الرفاعية المذكورة، والطريقة الاحمدية المنسوبة للسيد احمد البدوي، المتوفي سنة ٦٧٥ هـ، والطريقة البرهامية المنسوبة للشيخ ابراهيم الدسوقي القرشي ، المتوفي في ٦٧٦ هـ . (انظر الطبقات الكبرى للشعراني ، ج ١ ، ص ١٤٣ ، ١٥٨ ، القاهرة ١٣٤٣ هـ) . كذلك وفد الى مصر في ذلك العصر الشيخ ابو الحسن الشاذلي ، صاحب الطريقة الشاذليه ، سنة ٦٤٢ ، قادماً من المغرب ، ونزل الاسكندرية ، وعليه تتلمذ ابو العباس المرسي ، وابن عطاء الله السكندري ، وياقوت الحبشي ، وشرف الدين محمد بن حماد البوصيري .

٣ – جمال الدين الشيال ، الاسكندرية في العصرين الايوبي والمملوكي ص ٩٧ ، الاسكندرية ، مقال في المجلة التاريخية المصرية ص ٢٣٠ .

القبـاري [1] بضرورة تحصين الثغر ، وترميم اسواره ، وفي الزيارة الثانيـة سنـة ٦٦٤ هـ ، أمر بتطهير خليج الاسكندريـة من الرواسب الرمليـة التي اخـذت تطمر فوهته ، وتعوق مجراه ، وفي الزيارة الثالثـة سنة ٦٦٨ هـ [2] اهتم بيـبرس بأمر الشواني ، وأمر بنصب مائة منجنيق على اسوار الاسكندريـة استعداداً لتلقى الصليبيين [3]. وفي الزيارة الرابعة سنة ٦٧٣ هـ، اتفق ان تداعت بعض اركان من منارة الاسكندرية ، وسقط جانب من واجهتهـا البحرية ، كما تهدم جزء من الرصيف الذي يمتد لصق قاعدتها من جهة البحر، فامر بترميم ما تهدم، ويبدو ان المسجد الذي اقيم في عهد ابن طولون ، وشاهده الرحالة ابن جبير [4] عند زيارته لمنارة الاسكندرية ، وجدد في ايام الملك الكامل [5] ، اذ كان قد تهدم نحو ثلاثين ذراعاً من اعلاه ، اثر زلزال سنة ٢٤٤ هـ [6] ، يبدو ان هـذا المسجد قد تهدم مع ما تهدم من المنار ، فقد أمر بيبرس ببناء مسجد مكان القبة القديمة [7].

---

١ – هو الشيخ ابو القاسم بن منصور بن يحيى المالكي الاسكنـدراني ، المعروف بالقبـاري ، أحد الصوفية المشهورين في الثغر بكثرة الورع والتحري والانقطاع. وتوفي في ٦ شعبـان سنة ٦٦٢ هـ ، وما زال اسمه يطلق اليوم على احد احياء الاسكندرية .

٢ – قدم هذه المرة عندما بلغه ان الصليبيين بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا (ريد فرانس) يتأهبون لغزو مصر في الاسكنـدرية ، غير ان هـذه الحملة التي كانت موجهة الى مصر ، تحولت الى تونس في عهد المستنصر الحفصي ، فكتب احمد بن اسماعيل الزيات احـد ادباء دولة المستنصر :

أفرنسيس تونس اخـت مصر — فتـأهب لمـا اليـه تصير

لك فيها دار ابن لقمان قبر — وطواشيك منكر ونكير

فقضى الله ان يموت في حملته في تونس (المقريزي ، مجلد ١ ص ٣٩٣ – المقري ، نفح الطيب ، ج ٤ ص ٩٠) .

٣ – المقريزي ، الخطط ، مجلد ١ ، ص ٣٠٦ .

٤ – ابن جبير ، الرحلة ، ص ٤١ .

٥ – السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٣٩ .

٦ – المقريزي ، الخطط ، المجلد ١ ص ٢٧٦ .

٧ – النويري ، نهاية الارب في فنون الادب ، ج ١ ، ص ٣٩٧ – المقريزي ، الخطط ، مجلد ١ ص ٢٧٧ .

وواصل السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون سياسة الظاهر بيبرس في العناية بالثغر، فقد حدث في ولايته الثانية (٦٩٨ – ٧٠٨ هـ) زلزال عنيف سنة ٧٠٢هـ، اصاب عدداً كبيراً من آثار الثغر، واهمها منار الاسكندرية، وسورها، وحصونها، فتهدم من السور ست واربعين بدنة و١٧ برجاً، فكتب السلطان الى والي الاسكندرية بعمارتها سنة ٧٠٣. كذلك تم ترميم المنار على يدي الامير ركن الدين بيبرس الجاشنكير [١]. ويبدو ان اصابة المنار كانت بالغة، بحيث لم تفده اعمال الترميم شيئاً، فسقط جانب منه، ويدل على ذلك ما ذكره ابن بطوطة في رحلته سنة ٧٢٥ هـ، إذ اشار الى انه رأى أحد جوانبه مهدماً، ولما زار الاسكندرية بعد ذلك بربع قرن (٧٥٠هـ) رأى المنار «قد استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود الى بابه»[٢]. وكذلك أشار السيوطي الى تخريب المنار في أيام محمد بن قلاوون [٣]، ويعلل ابن بطوطه سبب اهمال الناصر في ترميم المنار بأن الناصر شرع في بناء منار مثله بازائه، فعاقه الموت عن اتمامه [٤]، ويقع هذا المنار الجديد في نهاية الصخور المتصلة برأس السلسلة، ويسمى اليوم بطابية السلسلة. وقد رأينا كيف اهتم الناصر باعادة حفر خليج الاسكندرية سنة ٧١٠ هـ، وكان ذلك سبباً في تعمير ضفتي الخليج بالمنيات والعمائر والضيعات.

وفي محرم سنة ٧٦٧، تعرضت الاسكندرية لغزوة بحرية قام بها القبارصة بقيادة بييردي لوزنيان، في عهد السلطان الملك الاشرف شعبان، وفي هذه الغزوة احتلوا المدينة بضعة ايام، اطلقوا خلالها يد النهب والسلب فيها، وهدموا الدور والفنادق والقصور [٥]، ولكنهم لم يمسوا المساجد خوفاً من ان ينتقم المسلمون بعد ذلك باحراق الكنائس، ولذلك عني الاشرف شعبان بتحصين الاسكندرية، وترميم اسوارها، واصلاح ما تخرب من منشآتها.

---

١ – النويري، نهاية الارب، ص ٣٩٧ – الخطط، مجلد ١، ص ٢٧٧.
٢ – ابن بطوطة، الرحلة، ص ١٠.
٣ – السيوطي، حسن المحاضرة، ص ٣٩.
٤ – ابن بطوطة، ص ١٠.
٥ – راجع التفصيلات في كتابي: تاريخ الاسكندرية، ص ٨٦ – ٨٧.

الفصل السادس

شفق المغيب: أو الازدهار الأخير

عرفت الاسكندرية طوال القرن التاسع الهجري عصراً من الرخاء فاق ما سبقه من عصور، فقد تالقت شمس الحضارة فيها تالقاً يشبه الوهج الذي يغمر الافق عند الغروب ، ولكنه ما يلبث ان يختفي سريعاً ، ثم يعقبه ظلام شامل ، فقد أصبحت طرق التجارة عبر فارس وآسيا الصغرى محفوفة بالاخطار ، بسبب الحروب المتواصلة ، وكذلك اصبحت طرق التجارة الممتدة الى شبه جزيرة البلقان والبحر الاسود غاية في الصعوبة ، ولم يعد في امكان اسطول الغرب التجاري أن يزاول مهمته ، دون ان يتعرض لصعوبات جمة، وعندئذ اقتصرت التجارة على الطريق الجنوبي عبر مصر ، وشهدت مصر وسوريا رخاء وازدهارا استمرا طوال هذا القرن التاسع الهجري ، الذي يمكننا أن نسميه بحق القرن الذهبي للاقتصاد المملوكي . ثم يتدهور هذا الاقتصاد منذ طليعة القرن العاشر الهجري، بسبب تعسف سلاطين المماليك، وكشف طريق راس الرجاء الصالح .

وكانت الاسكندرية إبان هذا العصر ، سوقاً تجارية هامة ، تتكدس فيها حاصلات الشرق بكميات هائلة، ومركزاً تتبادل فيه البضائع الشرقية والغربية. وكانت السفن تفد الى الاسكندرية في قوافل ، تتكون عادة من ثمانية سفن او اكثر ، فتفرغ بضائعها في الصادر او الدائرة الجمركية ، ثم توزع على اصحابها من التجار بعد ان يقوموا بدفع ما يفرضه عليهم نائب الاسكندرية من رسوم ، وينتقل التجار بعد ذلك الى فنادقهم الخاصة بهم . وكانت الفنادق التجارية اذ ذاك أبنية ضخمة مربعة الشكل ، تشبه الحصون ، ويشغل الطابق الأرضي حوانيت تتوزع حول الصحن المركزي ، وفي الطوابق الاخرى تتوزع الغرف التي ينزلها التجار للمبيت . ويتوسط الفندق صحن مركزي . ويحيط بالفنادق حدائق مغروسة بانواع الاشجار الغريبة . وكانت الفنادق ملكاً للدولة، وضعتها تحت تصرف التجار الاجانب ، وكان لا يسمح للنزلاء الاجانب بالخروج ليلاً من

هذه الفنادق ، كما كان محرماً عليهم التجول في الطرقات أثنـاء صلاة الجمعة ، بل كانوا يحبسون في فنـادقهم وقتـاً يطول احيـانا إلى ثلاث ساعـات [1] . وكانت الاسكندرية تضم عددا كبيراً من الفنادق المخصصة للتجار الاجانب والحجاج ، فكان للبنادقة فندقان ، وكان للجنويين فندق، وللفلورنسيين فندق، وجعلت الحكومة للتجار الاكونتيين ، والبلرميين ، والنابوليين ، فندقاً مشتركا ، كذلك كان للفرنسيين فنادق كثيرة منهـا فندق للمارسيليين ، واخر للنربونيين ، وثالث للقطلانيين ، ثم كانت هنـاك فنادق أخرى للتبـارصـة ، ولتجـار كنديـة ، ولليونانيين ، وللاتراك، وللمورطانيين، وللتتار . وكان فندق التتار سوقاً لتجارة الرقيق [2] . وكان كل فندق يضم ابراشية او مصلي لنزلائه، باستثناء بعض الفنادق الخاصة بالجمهوريات التجاريـة الهامة مثل البيزيين والبنادقة ، فقد كانت للبيزيين كنيسة سانت نيقولاس ، وللجنويين كنيسة سانتا ماريا ، وللبنادقة كنيسة سان ميشيل .

أثرى سلاطين مصر ثراء فاحشاً ، بسبب احتكارهم بيع التوابل والبهـار على وجه خاص ، وتحديد سعره وفقاً وأهوائهم ، وقد بلغت الاحتكارات ذروتهـا أيام الاشرف برسباي ، الذي اصدر في عام ١٤٢٨ م مرسوماً ، حرم فيه شراء التوابل من غير مخازن السلطان ، كما فرض رسومـاً باهظـة على الواردات والصادرات ، فارتفعت أسعار بعض السلع الشرقية ارتفاعـاً كبيراً ، [3] وكانت هذه الاحتكارات مثاراً لسخط التجار الاجـانب واستصراخهم للسلطان ، فقد شكا التجار المغاربة لفرج بن برقوق من جور القباض ، فأمر السلطان بابطال مـا كان يؤخذ منهم من المكوس المحدثة [4] ، كذلك احتج التجـار البنادقـة على

---

١ – شارل ديل ، البندقية جمهورية ارستقراطيـة ، تعريب الدكتور احمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر ، القاهرة ١٩٤٨ ص ١٤٢ – . Heyd, op. cit. t. II, P. 427-434

٢ – Heyd, op. cit. P. 432 .

٣ – علي ابراهيم طرخان، مصر في عصر دولة المماليك الشراكسة، القاهرة ١٩٦٠، ص ٢٧٩

٤ – ابن اياس بدائع الزهور ، ج ٢ ص ١٧٣ وج ٤ ص ٤٢٦ .

الاشرف برسباي سنة ٨٣٦ هـ عن طريق ممثلهم في الاسكندرية ، كما احتج تجار ارغونة وقشتالة ، وعمدوا الى رفع اثمان السلع الاوروبية التي ترد الى مصر ، وهاجمت سفن أرغونة وقشتالة السفن المصرية على سواحل الشام .

وهكذا عم الرخاء في مصر ابان هذا القرن، وانعكس ذلك كله على العمران السكندري فحظيت المدينة بنصيب وافر من عناية سلاطين هذه الدولة، وأولهم الناصر فرج بن برقوق الذي زارها في ١٨ شوال سنة ٨١٤، واهتم السلطان الملك الاشرف برسباي باعادة حفر خليج الاسكندرية بعد ان انقطعت مياه النيل عنه منذ عام ٧٧٠ هـ وصار لا يدخل اليه الا في أيام الفيضان ، ثم يجف عند انخفاض مياه النيل ، وكان عدد كبير من البساتين المحيطة بالاسكندرية قد تحولت الى اراض قفراء ، كما خربت كثير من القرى التي كانت تحف بضفتي الخليج . فانتدب السلطان لحفرة الامير جرباش الكريمي المعروف بعاشق، فتم حفرة في ١١ شعبان ٨٢٦ هـ [1]، وسميت الترعة الجديدة بالأشرفية تيمنا باسم هذا السلطان . [2] ولكن لم يستمر جريان الماء طويلاً، فلم يلبث ان انطم بالرمل، وتعذر سلوكه بالمراكب، الا في ايام الفيضان ، وأخيراً اهتم السلطان الملك الاشرف قايتباي بمدينة الاسكندرية اهتماماً كبيراً ، فعمل على تحصينها، خاصة بعد ان تأزمت العلاقات بين الدولة العثمانية الفتية وبين مصر ، فزارها سنة ٨٨٢ هـ ، وأمر ببناء برج او قلعة على اساس منار الاسكندرية ، وتم بناء هذا البرج بعد عامين من تاريخ هذه الزيارة . وكان البرج يشتمل على مسجد جامع ، وطاحون ، وفرن ، وحواصل مشحونة كلها بالسلاح ، ومكاحل معمرة بالمدافع [3] . ويعتبر برج قايتباي من أهم معالم الثغر السكندرى في عصر دولة المماليك الشراكسة . وقد رأينا من قبل كيف تصدع منار الاسكندرية ، وتهدمت اجزاء منه « على طول الازمان ،

---

١ - المقريزي ج ١ ص ٣٠٢ .
٢ - عمر طوسون ، خليج الاسكندرية ص ٢٩ .
٣ - ابن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الزهور ، ج ٣ ص ١٥١ وما يليها .

وترادف الزلازل والامطار » [1] . واول ما اصاب المنار، زلزال حدث سنة ١٨٠ هـ ، هدم الطابق العلوي ، فجعل احمد بن طولون مكانه قبة من الخشب ، تهدمت بعد ذلك بفعل الرياح [2] ، ثم تهدم احد اركان المنار الغربي مما يلي البحر فبناه ابو الجيش خمارويه وفي رمضان سنة ٣٤٤ هـ ، حدث زلزال بمصر والشام وبلاد المغرب، هدم نحو ثلاثين ذراعاً من اعلى المنار ، ثم أقيم بأعلى المنار مسجد ذكره ابن جبير عند تعرضه لوصف منار الاسكندرية ، وصلى فيه [3] ، ثم اعيد انشاء هذا المسجد في سنة ٦٧٣ هـ ، في عهد الظاهر بيبرس [4] ، وفي سنة ٧٠٢ هـ تهدم جانب من المنار على اثر زلزال حدث في تلك السنة ، وقد قام الامير ركن الدين بيبرس الجاشنكير بترميم ما تهدم من المنار في شهور سنة ٧٠٣، ولكن يبدو ان الاصابة كانت هذه المرة بالغة ، بحيث لم تفده اعمال الترميم ، فسقط جانب من المنار ، شاهده ابن بطوطة سنة ٧٢٥ هـ ، وفي سنة ٧٥٠ هـ شاهده مرة ثانية ، وقد استولى عليه الخراب ، بحيث أصبح من العسير سلوكه ، والوصول الى اجزائه الداخلية . هذه الحالة السيئة التي آل اليها المنار ، تفسر زهد السلطان محمد بن قلاوون عن اصلاح المنار ، وشروعه في اقامة منار آخر تجاهه . ومنذ ذلك الحين اهمل السلاطين ترميم منار الاسكندرية الشهير ، وقد ساعد هذا الاهمال على زيادة تخريبه ، بالاضافة الى الضرر الكبير الذي لحقه بعد زلزال سنة

---

١ – المقريزي ، الخطط ، مجلد ص ٢٧٦ .

٢ – نفس المرجع ، ص ٢٧٦ – ٢٧٧ ، السيوطي ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤٧

٣ – ابن جبير ص ٤١ . وذكر السيوطي ان هذا الجامع من بناء السلطان الملك الكامل (ج ١ ص ٣٧). ولكن ذكر ابن جبير لهذا الجامع يدل على انه اقيم قبل عصر الملك الكامل، وبطبيعة الحال قبل سنة ٥٧٨هـ وهي السنة التي زار فيها ابن جبير الاسكندرية. وقد يكون هذا المسجد هو نفس القبة التي اقامها ابن طولون ، وعلى هذا الاساس يمكننا ان نفسر قول السيوطي، بأن اعمال الكامل لا تعدو ترميماً للمسجد الذي اقيم قبل السنة المذكورة .

٤ – المقريزي مجلد ١ ص ٢٧٧ .

٧٧٧ هـ ، الذي أطاح بما تبقى من رأس المنار [١] .

وظلت أطلال منار الاسكندرية ، وما تبقى من الطابق الادنى منه قائمة ، حتى كانت ايام السلطان الملك الاشرف ابو النصر قايتباي ، فشاهدها عند زيارته الاولى لثغر الاسكندرية ، في ربيع الاول سنة ٨٨٢ هـ ، ويبدو ان الحالة السيئة التي وصل اليها المنار الشهير ، الذي كان يعتبر احدي أعاجيب الدنيا ، قد أثرت في نفسه تأثيراً عميقاً ، وكأنما عز على هذا السلطان الذي عرف بشغفه بالبنيان ، وحبه للانشاء والتعمير ، ان ينهار هذا المنار العظيم ، الذي تضم عمارته صفحات مجيدة من تاريخ مصر القديم ، والاسلامي ، والمعاصر له ، « فرسم بأن يبني على أساسه القديم برجاً » [٢] ، يعيد الى الاذهان ذكرى منار الاسكندرية القديم ، واحتفل السلطان ، بعد عامين من الشروع في البناء باتمامه ، احتفالاً كبيراً ، ففي جمادى الاول سنة ٨٨٤ هـ ، سافر الى الثغر للمرة الثانية ، وشاهد البرج ، وأعجب بعمارته ، ويصف ابن اياس هذا البرج فيقول « بني على أساس المنار القديم الذي كان بالاسكندرية ، وأنشأ بهذا البرج مقعداً يطل على البحر ، ينظر منه من مسيرة يوم الى مراكب الفرنج وهي داخلة الى المينة ، وجعل بهذا البرج جامعاً بخطبة ، وطاحوناً ، وفرناً ، وحواصلاً ، وأشحنهم بالسلاح ، وجعل حول هذا البرج مكاحلاً معمرة بالمدافع ليلاً ونهاراً ، بسبب أن لا تطرق الفرنج للثغر على حين غفلة ، وجعل به جماعة من المجاهدين قاطنين به دائماً ، وأجرى عليهم الجوامك والرواتب في كل شهر ، وجعل عليهم شاداً من خواصه يقال له قانصوه المحمدي ، وهو الذي ولي نيابة الشام فيما بعد ، وصار يعرف بقانصوه البرجي ، وقيل ان السلطان أصرف على بناء هذا البرج زيادة على المائة الف دينار ، وأوقف عليه الاوقاف الجليلة ، وجاء من احسن الآثار والمعروف » [٣] .

---

١ – المقريزي ، الخطط ، مجلدا ، ص ٢٧٥ .
٢ – ابن اياس بدائع الزهور ج ٣ ص ١٢٨ .
٣ – نفس المرجع ج ٣ ص ١٥٠ ، ١٥١ .

والواقع ان برج قايتباي اكتسب أهمية كبيرة من تشييده على أساس المنار القديم ، بحيث أصبح امتداداً لمنار الاسكندرية القديمة، لذلك عرف بناء القلعة عند الرحالة الاجانب باسم « المنار الصغير »، كما سمى أيضاً في ايام الحملة الفرنسية باسم قلعة المنارة [١].

وقلعة قايتباي ما زالت ترتفع حتى اليوم شامخة ، في نهاية الطرف الشمالي الشرقي من شبه جزيرة رأس التين، بحيث تشرف في هذا الموقع الممتاز على مدخل الميناء الشرقية ، وتتكون القلعة من عنصرين اساسيين :

١ - الأسوار الخارجية التي تحيط بالقلعة كلها . ٢ - البرج الرئيسي المقام على أساس المنار القديم .

اما الأسوار الخارجية فيمتد محيطها حول مساحة كبيرة تزيد على فدانين [٢]، وتنقسم الى قسمين منفصلين : الأسوار الداخلية ، والأسوار الخارجية ، بينهما أرض فضاء . والأسوار الداخلية مجموعة من الحجرات المخصصة للعسكر ، تمتد بحذاء الاسوار الخارجية ، وتنفتح أبوابها الى فناء القلعة الفسيح . وقد روعي في بناء هذه الحجرات ، أن تكون متلاصقة ، وان تكون عاطلة من النوافذ المطلة على السور الخارجي . اما الاسوار الخارجية فتؤلف السياج الخارجي للقلعة ، وتتخذ مظهر اسوار المدن ، لأنها تحيط بالقلعه من الجهات الاربعة. ونلاحظ ان القسم الشرقي من هذه الاسوار لا تتخلله أبراج ، كما انه غير مزود من اعلاه بالشرفات البارزة عن السور ، التي نراها في القسم الغربي ؛ اما القسم الغربي فمزود بثلاثة أبراج نصف دائرية، يصل ارتفاعها الى ارتفاع الاسوار نفسها، وتنفتح فيه نوافذ للسهام على طابقين؛ والقسم الجنوبي من الاسوار تتخلله ثلاثة أبراج مستديرة،

---

١ - Van Berchem , chateau du Sultan Qayt - Bey à Alexandrie , dans Corpus Inscriptionum Arabicarum, (L'EGYPTE, t. I), t . 79 , Paris 1894, p. 478.
وانظر الرسالة التي قدمها الدكتور محمد توفيق بلبع في مايو سنة ١٩٥٥ ، للحصول على درجة الماجستير، بعنوان: آثار السلطان قايتباى في الاسكندرية (قلعة قايتباى) ص٦٦، ١٢٠

٢ - محمد توفيق بلبع ، آثار السلطان قايتباي ص ١٠٤ .

تتجاوز في بروزها عن السور نصف الدائرة ، ويتوسط هـذا القسم من الاسوار باب هو المدخل الوحيد للقلعة في الوقت الحاضر . ويواجه هذا الباب في السور الداخلي باب آخر، يفضي الى أسطوان بين الحجرات المخصصة للعسكر، وينتهي الى الفناء الداخلي للقلعة . ويعلو هذا الباب لوحة رخامية ما زالت تعلو عتبـه ، مسجل عليها المرسوم الذي اصدره السلطان الغوري في ربيع الاول ٩٠٧هـ ونصه (بسم الله الرحمن الرحيم ، رسم بامر مولانا المقام الشريف الملك الاشرف ابو النصر قانصوه الغوري خلد الله ملكه، ان لا احد يأخذ من البرج الشريف بالاسكندرية سلاح مكاحل، ولا بارود، ولا آلة، ولا غير ذلك. ومن خالف ذلك من جماعة البرج من مماليك وعبيد وزردكاشية ، وخرج منه بشيء ، شنق على باب البرج ، وعليه لعنة الله . بتاريخ شهر ربيع الاول، سنة سبع وتسعمائة من الهجرة) .[1]
اما القسم الشمالي من هذه الاسوار الخارجية ، ويطل على البحر ، فقد فتحت في جزئه الأدنى فتحات مربعة معقودة ، كانت تنصب فيها المدافع والمجانيق ، أما جزؤه الاعلى ففتحت فيه نوافذ للسهام [2].

أما البرج الرئيسي ، فبنـاء مربع الشكل ، طول كل جانب منـه ٣٠ متراً، ويتجاوز ارتفاعه ١٧ متراً ، وأركان هـذا البرج الاربعـة مزودة بابراج عليـا صغيرة مستديرة الشكل ، ترتفع الى مستوى البرج الاصلي نفسه ، ويبلغ قطر كل منها ستة امتار [3] . وترتكز هذه الابراج الركنية على مساند حجرية ، عددهـا في كل برج ١٣ مسنـداً ، وينفتح في جدران كل من هذه الابراج الاربعـة ثلاث نوافذ للسهام ، موزعـة على المحيط الخارجي لكل برج ، في نفس مستوى نوافذ

---

١ – محمد توفيق بلبع ، المرجع السابق ص ١٠٧ عبد الرحمن زكي قلعة صلاح الدين ، القاهرة ١٩٦٠ص١٥١ – عبد العزيز سالم، تاريخ الاسكندرية ص ١٦٣ .

٢ – استقيت هذه المعلومات من الرسالة المقدمة من الدكتور محمد توفيق بلبع للحصول على درجة الماجستير ص ١٠٤ – ١٠٨ .

٣ – محمـد توفيق بلبع، المرجع السابق ، ص ٧٠ . تبرز هذه الابراج عن سمت جدار البرج الرئيسي بنحو نصف متر .

واجهات البرج الرئيسي ، وعلى طابقين . ويشتمل هذا البرج على ثلاثة طوابق : الأدني ، ويصل ارتفاعه الى سبعة امتار ونصف تقريباً ، وفي هـذا الطابق يقوم مسجد القلعة ، الذي يشغـل أكثر من نصف مساحتـه ، وهو يتألف من صحن مركزي مربع ، تحيط به أربع ايوانات صغيرة ، تزدان بواطن عقودها بزخارف هندسية ونباتية ، وتكسو ارضيــة الصحن فسيفســاء معددة الألوان ، تكون زخارف هندسية رائعة. والطابق الثاني يضم ممرات وقاعات وحجرات داخلية. اما الطابق الثالث العلوي فأهم ما يحتويه ، القاعـة الكبرى التي تتوسط الواجهة الجنوبية ، والتي يسميها ابن اياس « بالمقعد » الذي يطل على البحر، والذي يمكن للجالس فيه ان يرى السفن القادمة من مسافة بعيدة . ويزودنا الدكتور محمد توفيق بلبع بوصف دقيق لهذا المقعـد ، فيقول : « وهذه القاعـة الكبيرة التي تتوسط الواجهة الجنوبية عبـارة عن حجرة مستطيلة ، طولها خمسة أمتار ، وعرضهـا أربعة امتار تقريباً ، لها سقف مبني بالآجر على شكل قبوة متعارضـة ، ترتكز على أربعة عقود ملتصقة بالجدران، وقد فتح في جدار تلك القاعة الجنوبي نافذتان كبيرتان مستطيلتان ، لكل منها عقد حجري صغير، وتبرز هاتان النافذتان عن مستوى الجدار بنصف متر تقريباً . ويرتكز ذلك الجزء البارز على اربعة أزواج من المساند الحجرية » [١] .

وعمارة هذا البرج تشبه الى حد كبير عمارة برج رأس النهر بطرابلس الشام، الذي أقامه قايتباي في ٨٨٢ ، اثناء رحلتــه الى الشــام ، وهذا البرج هو صورة مصغرة لبرج قايتبــاي بالاسكندرية ، اذ يبلغ طول ضلع قاعدته المربعة نحو ١٦ متراً ، وهويشبه برج الاسكندرية في شكله المربع ، وفي الركائز الاسطوانيــة الركنية المندمجة في البناء ، وفي أنه يشتمل ايضاً على مسجد صغير [٢] .

---

١ – محمد توفيق بلبع المرجع السابق،ص ٩٠ ، ٩١ .

٢ – انظر مقالي ، طرابلس الشام : تاريخها وآثارها في العصر الاسلامي ، مجـلة كلية الاداب ، جامعة الاسكندرية ، العدد الصادر في اغسطس ١٩٦٣ ، ص ٤٢ – ١٠٣ .

وفي اواخر القرن التاسع الهجري ، وقـع حادث خطير كان له صدى عميق في تاريخ مصر عامة ، وتاريخ الاسكندرية خاصة ، هو نجاح البرتغاليين في كشف طريق رأس الرجـاء الصالح . ففي سنة ٨٩٢ هـ (١٤٨٧ م) سـار برتلميو دياز (Barthélemy Diaz) بحذاء الساحل الغربي لافريقيـا ، متجهاً الى الجنوب ، حتى وصل في ديسمبر من هذا العـام، الى الطرف الجنوبي للقـارة ، واطلق على هذا الطرف اسم رأس الرجاء الصالح . ومنذ ذلك التاريخ بدأ عهـد جديد في تاريخ تجارة الشرق ، إذ لم يكد ينتهي القرن الثامن الهجري حتى عرف العالم الاوروبي سوقاً تجارية جديدة تنافس السوق المصرية في رخص اسعار منتجاتها ، ولم تلبث الدول التي كانت تتعـامـل مع مصر ان تحولت الى السوق الاخرى ، وأصيب الاقتصاد المصري بسبب ذلك اصابة بالغة، وخسرت مصر خسائر فادحة نتيجة لتحكم الاسطول البرتغالي بقيادة فاسكودي جاما في الطريق التجاري القديم ، الذي يربط مصر بالهند ، وذلك بمرابطته امام مدخل البحر الاحمر ليحول دون خروج السفن المصرية نحو المحيط الهندي ، وهكذا ضمن البرتغاليون لانفسهم السيادة في اسواق التوابل [١] .

وظهر اثر هـذا التدهور الاقتصـادي في العمران السكنـدري ، اذ تحولت بساتينها الخضراء الى أراضي قفراء ، بسبب انقطاع ميـاه النيل عن الوصول الى المدينة ، وبسبب تحول عدد كبير من التجار الاجـانب الى السوق الاوروبية ، فراراً من تعسف القباض ونواب السلطنة في الثغر ، وبسبب انتشار الاوبئـة في طليعـة القرن العاشر الهجري ، ويبدو ان انتشار الاوبئة كان له اثر بالغ في اضمحلال المدينة ، ونقص عدد السكان ، وتاخر العمران ، وقد وصف السفير

---

١ – شارل ديل، البندقية ، ص ١٤٥ – ڤيت، المواصلات في مصر في العصور الوسطى، ترجمة الاستاذ محمد وهبي مقال في كتاب مصر الاسلامية القاهرة ١٩٣٧ ص ٤١ – علي ابراهيم طرخان، مصر في عصر دولة المماليك الشراكسة، ص ٢٩٣ – ٣٠٢ – احمد السيد دراج، المماليك والفرنج، القاهرة ١٩٦١، ص ١٣٢ وما يليها .

القشتالي بدرو مارتير ما اصاب الاسكندرية ، وذكر ان الدور خلت من اصحابها ، والشوارع اقفرت من السابلة، وانتشرت فيها الانقاض والاتربة، وآل أمر الاسكندرية الى الخراب [2] . ويعبر ابن اياس عن هذا اصدق تعبير اذ يصف موكب السلطان الغوري في شوارع الاسكندرية عند زيارته لها في ذي الحجة سنة ٩٢٠ هـ فيقول : « ... فلما شق من المدينة زينت له زينة فشروية ، وكان ثغر الاسكندرية يومئذ في غاية التزحل والخراب ... ولم يكن بثغر الاسكندرية يومئذ احد من اعيان التجار ، لا من المسلمين ، ولا من الفرنج ، وكانت المدينة في غاية الخراب ، بسبب ظلم النائب ، وجور القباض ، فانهم صاروا يأخذون من التجار العشر عشرة امثال ، فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخول في الثغر ، فتلاشي أمر المدينة ، وآل امرها الى الخراب ، حتى قيل ، وطلب الخبز فلم يوجد ولا الاكل، ووجد بها بعض دكاكين مفتحة، والبقية خراب لم تفتح»[3].

وختم الفتح العثماني لمصر نهاية هذه المأساه ، وفقدت الاسكندرية مكانتها القديمة ، وانكمش عمرانها ، واقتصر في العصر العثماني على الرصيف الممتد بين الشاطىء وجزيرة فاروس القديمة ، اما القصبة فقد انحسرت الى الداخل ، واصبحت تعرف بالمدينة العربية .

١ — Pedro Martir , Una Embajada de los Reyes Catolicos a Egipto , Valladolid , 1947 , p . 78 - 80 .

٢ — ابن اياس ، بدائع الزهور ج ٤ ص ٤٢٤ .

المراجع

١ – الادريسي (الشريف) : وصف المغرب والاندلس من كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » ، نشره دوزي Dozy ودي غويه De Goeje ، ليدن ١٨٦٦ .
٢ – ابن أبي زرع (ابو الحسن علي بن عبد الله الفاسي) : كتاب روض القرطاس ، جزآن ، نشره وحققه تورنبرج ، ابسال ١٨٣٩ .
٣ – ابن الاثير (علي بن احمد بن ابي الكرم) : الكامل في التاريخ ، طبعة مصر ١٣٥٦ ﻫ
٤ – ابن اياس (محمد بن احمد) : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، نشره باول كاله ، ومحمد مصطفى، وسوبر نهايم ، ج ٤ ، اسطنبول ١٩٣١ – ١٩٣٦ .
٥ – ابن تغري بردى (ابو المحاسن) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج ١١ ، القاهرة ١٩٥٠ .
٦ – ابن بطوطة (محمد بن عبد الله بن محمد) رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، القاهرة ١٣٢٢ ﻫ
٧ – ابن جبير (ابو الحسين محمد بن احمد) : رحلة ابن جبير ، تحقيق William Wright ، ليدن ١٩٠٧ .
٨ – ابن حوقل النصيبي : كتاب صورة الارض ، تحقيق Kramers ، ليدن ١٩٣٨ ، وطبعة بيروت ١٩٦٢ .
٩ – ابن خلدون (عبد الرحمن) : مقدمة ابن خلدون ، طبعة مصر بدون تاريخ .
١٠ – ابن دقماق (ابراهيم بن محمد): الانتصار لواسطة عقد الامصار، ج ٥ بولاق ١٣٠٩ ﻫ .
١١ – ابن رسته (ابو علي احمد بن عمر) : كتاب الاعلاق النفيسة ، نشره

De Goeje ، ليدن ۱۸۸۱ -- ۱۸۸۲ .
۱۲ – ابن شاهين الظاهري (غرس الدين خليل) : كتـاب زبـدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، نشره بول رافيس ، باريس ١٨٩٤ .
١٣ – ابن عبد الحكم (عبد الرحمن) : فتوح مصر والمغرب ، تحقيق عبد المنعم عامر ، القاهرة ١٩٦١ .
١٤ – ابن الفقيه (ابو بكر احمد بن ابراهيم الهمذاني) : مختصر كتاب البلدان ، تحقيق دي غويه ، ليدن ١٨٨٥ .
١٥ – ابن واصل (جمال الدين) : مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، ج ٢ ، القاهرة ، ١٩٥٧ .
١٦ – ابو شامة (عبد الرحمن بن اسماعيل) : كتاب الروضتين في اخبار الدولتين ، ج ١ ، القاهرة ، ١٢٨٧ هـ .
١٧ – آيمار (اندريه) Aymard (André) : Les civilisations de l'homme dans le Proche-Orient, dans : « Histoire Générale des Civilisations » t. I, l'Orient et la Grèce, Paris, 1955.
١٨ – البكري (ابو عبيد الله) : المغرب في ذكر بلاد افريقيه والمغرب ، نشره دي سلان ، الجزائر ١٩١١ .
١٩ – بريشيا : Breccia, Alexandria Ad Aegyptum, Bergamo, 1922
٢٠ – بل (آيدرس) : مصر من الاسكندر الاكبر حتى الفتح العربي ، ترجمة الدكتور محمد عواد حسين والدكتور عبد اللطيف احمد علي، القاهرة ١٩٥٤
٢١ – البلاذري (احمد بن يحي بن جابر) : كتاب فتوح البلدان ، نشره الدكتور صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٩٥٧ .
٢٢ – بلبع (الدكتور محمد توفيق) آثار السلطان قايتباي في الاسكندرية (قلعة قايتباي) الرسالة المقدمة سنة ١٩٥٥ للحصول على درجة الماجستير .
٢٣ – بنيامين التطيلي : Benjamin de Tudela, Viajes de Benjamin de Tudela, trad. de Ignacio Gonzalez Llubera, Madrid, 1918.

٢٤ – التفتازاني (دكتور ابو الوفا الغنيمي) : ابن عطاء الله السكندري ، القاهرة ١٩٠٨ .

٢٥ – توريس بلبـــاس : Torres Balbas (L.) Les villes musulmanes d'Espagne et leur urbanisation, dans, Annales de l'Institut d'Etudes Orientales de l'Université d'Alger, t. VI, 1942-1947, pp. 8-30.

٢٦–توريس بلباس : ... : Aspectos de las ciudades hispanomusulmanas, Revista del Instituto Egipcio de Madrid, Vol. II, fasc. 1, 2, 1954 PP. 76-98.

٢٧ – توريس بلباس : ... : Los edificios Hispanomusulmanes, Revista del Instituto Egipcio de Madrid, No. 1, 1953.

٢٨ – جست : Guest (Rhuvon) Alexandrie, (art) dans Enc. Islam

٢٩ – الجزناءي (ابو الحسن علي) كتاب زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، تحقيق الفريد بيل ، الجزائر ١٩٢٢ .

٣٠ – جوندي : Jondet (Gaston) : les ports submergés de l'ancienne île de Pharos, Mémoire de l'Institut d'Egypte, Vol X, le Caire, 1916.

٣١ – الحميري (ابو عبدالله محمد بن عبد الله) : صفة جزيرة الاندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار ، نشره لافي بروفنصال ، القاهرة ١٩٣٧ .

٣٢ – الخشني (ابو عبد الله محمد بن حارث) : كتاب القضاة بقرطبة ، نشره خوليـــان ريبيرا بعنوان Historia de los Jueces de Cordoba. ، مدريد ، ١٩١٤ .

٣٣ – دراج (دكتور احمد) ، المماليك والفرنج ، في القرن التاسع الهجري ، القاهرة ١٩٦٠ .

٣٤ – ديل (شارل) : البندقيـة جمهورية ارستقراطية ، ترجمـة الدكتور احمد عزت عبد الكريم والاستاذ توفيق اسكندر ، القاهرة ١٩٤٨ .

٣٥–روبير ريكار : Robert Ricard : Couraça et Coracha, Al-Andalus, Vol. XIX, 1954.

٣٦ – روبير ريكار : Robert Ricard : Complément sur la Coracha, al-Andalus, Vol. XX, 1955.

٣٧ – زكي علي : الاسكندرية في عصر البطالمة والرومان، مقال في الكتاب الذي اصدرته غرفة الاسكندرية التجارية في المعرض الزراعي الصناعي لعام ١٩٤٩

٣٨ – زكي (الدكتور عبد الرحمن) : قلعة صلاح الدين وقلاع اخرى ، القاهرة ١٩٦٠ .

٣٩ – زيادة (الدكتور نقولا) : لمحات من تاريخ العرب ، بيروت ١٩٦١ .

٤٠ – سالم (الدكتور السيد عبد العزيز) : التخطيط ومظاهر العمران في العصور الاسلامية الوسطى ، مقال بمجلة المجلة ، العدد ٩، ١٩٥٧، ص ٥٤ – ٦٣

٤١ – .... وسائل الدفاع الاسلامي في الاندلس ، مجلة الجيش ، عدد ٨٢، ١٩٥٧ .

٤٢ – .... مسجد المدجنين بطليطلة ، مقال بمجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ١٩٥٨ .

٤٣ – .... الفسطاط ، مقال بدائرة معارف الشعب ، عدد ٧٩ ، ص ٤١ – ٥٧ ، القاهرة ١٩٦٠ .

٤٤ – .... تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي ، الاسكندرية ١٩٦١ .

٤٥ – .... الاسكندرية من الفتح الفاطمي حتى الفتح العثماني ، مقال في الكتاب الذي اصدرته محافظة الاسكندرية ١٩٦٣ ص ٢٩٠ – ٣٢٦ .

٤٦ – .... القيم الجمالية في فن العمارة الاسلامية، محاضرة بجامعة بيروت العربية ، بيروت ١٩٦٣ .

٤٧ – .... طرابلس الشام : تاريخها واثارها في العصر الاسلامي ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ١٩٦٣ ، ص ٤٣ – ١٠٣ .

٤٨ – سركيس (الاستاذ يعقوب) : البصرة ، مقال بمجلة سومر العراقية ، الجزء الاول ، المجلد الرابع ١٩٤٨ .

٤٩ – سلام (دكتور محمد زغلول): الادب في عصر صلاح الدين، الاسكندرية ١٩٥٩ .
٥٠ – السيوطي (جلال الدين): حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة ، جزآن ، مصر ١٣٢٧ هـ .
٥١ – الشعراني (عبد الوهاب) : الطبقات الكبرى ، ج ١ القاهرة ١٣٤٣
٥٢ – شعيرة (دكتور محمد عبد الهادي) : الاسكندرية من الفتح العربي الى نهاية العصر الفاطمي ، مقال في كتاب الغرفة التجارية سنة ١٩٤٩ .
٥٣ – الشيال (دكتور جمال الدين) : الاسكندرية في العصرين الايوبي والمملوكي ، مقال في كتاب غرفة الاسكندرية التجارية ، ١٩٤٩ .
٥٤ – .... الاسكندرية : طوبوغرافية المدينة وتطورها من اقدم العصور الى الوقت الحاضر ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثاني ، العدد الثاني ، اكتوبر ١٩٤٩ ص ١٩١ – ٢٧١ .
٥٥ – .... الفسطاط ، مقال في مجلة كلية الاداب، جامعة الاسكندرية، المجلد ١٢ ، ١٩٥٨ .
٥٦ – صبحي عبد الحكيم (دكتور محمد) : مدينة الاسكندرية ، القاهرة ١٩٥٨ .
٥٧ – الطبري (ابو جعفر محمد بن جرير) : تاريخ الامم والملوك ، ط.مصر ١٩٣٩ .
٥٨ – طرخان (دكتور علي ابراهيم): مصر في عصر دولة المماليك الشراكسة، القاهرة ١٩٦٠ .
٥٩ – طوسون (عمر): تاريخ خليج الاسكندرية القديم، الاسكندرية ١٩٤٢
٦٠ – العبادي (دكتور مصطفى) : الاسكندرية في العصر الروماني ، مقال في كتاب محافظة الاسكندرية ص ٥٨ – ٩٩ .
٦١ – عبد الحميد (دكتور سعد زغلول) : الاسكندرية من الفتح العربي حتى العصر الفاطمى مقال بكتاب محافظة الاسكندرية ، ص ٢١٧ – ٢٨٩ .

٦٢ – عبد اللطيف البغدادي (موفق الدين) : كتاب الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، القاهرة ١٨٧٠ .

٦٣ – عبد الوهاب (الاستاذ حسن) : الاسكندرية في العصر الاسلامي ، مجلة الكتاب ، القاهرة ١٩٤٦ .

٦٤ – عبده (دكتور داود) : الاسكندرية في العصر البيزنطي ، مقال بكتاب محافظة الاسكندرية ، ص ٢٠٠ – ٢١٤ .

٦٥ – عطية (دكتور عزيز سوريال) : الاسكندرية المسيحية ، مقال بكتاب غرفة الاسكندرية التجارية ١٩٤٩ .

٦٦ – عواد حسين (دكتور محمد) : مقدمة لكتاب تاريخ الاسكندرية منذ اقدم العصور اصدرته محافظة الاسكندرية ص ٩ – ١٢ .

٦٧ – .... مقال عن تخطيط المدينة في محافظة الاسكندرية ، ص ١٣ – ٢١ .

٦٨ – ڤان برشم :

Van Berchem (M.) : Château du Sultan (Qayt-Bey) à Alexandrie, dans Corpus Inscriptionum Arabicarum, t. 19, Première Partie, Egypte, Paris 1894.

٦٩ – الفخراني (دكتور فوزي) : مقال عن آثار الاسكندرية في العصر الروماني ، بكتاب محافظة الاسكندرية ، ص ١٥٩ – ١٩٩ .

٧٠ – فكري (دكتور احمد) : المدخل الى مساجد القاهرة ومدارسها ، الاسكندرية ١٩٦١ .

٧١ – ڤيت (جاستون) : المواصلات في مصر في العصور الوسطى ، ترجمة الاستاذ محمد وهبى ، مقال بكتاب « في مصر الاسلامية » القاهرة ١٩٣٧ .

٧٢ القلقشندي (ابو العباس احمد) : صبح الاعشى في صناعة الانشا، ج ٤، القاهرة ١٩١٣ – ١٩١٥ .

٧٣ – الكاشف (دكتورة سيدة اسماعيل): مصر في عصر الولاة ، القاهرة ١٩٥٩ .
٧٤ – ماركيلنيوس (أميانوس) : مصر في القرن الرابع ، ترجمة الاستاذ وهيب كامل .
٧٥ – المراكشي (عبد الواحد) : المعجب في تلخيص اخبار المغرب، تحقيق الاستاذان محمد سعيد العريان ، ومحمد العربي العلمي ، القاهرة ١٩٤٩ .
٧٦ – المراكشي (ابو عبد الله محمد بن عذارى) : كتاب البيان المغرب في اخبار المغرب ، الجزء الاول ، بيروت ١٩٥٠ .
٧٧ – المقدسي (ابو عبد الله محمد بن احمد) : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، تحقيق دي غويه ، ليدن ١٩٠٦ .
٧٨ – مارتير Martir (Pedro) : una Embajada de los Reyes Catolicos a Egipto, Valladolid, 1947.
٧٩ – مبارك (علي باشا) : الخطط التوفيقية ، ج ٧ ، بولاق ، ١٣٠٥ ه .
٨٠ – مجهول : كتاب الاستبصار في عجائب الامصار لكاتب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري ، نشر وتعليق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية ١٩٥٨ .
٨١ – مسعود (محمد) : المنحة الدهرية في تخطيط الاسكندرية ، الاسكندرية ١٣٠٨ ه
٨٢ – المسعودي (ابو الحسن علي بن الحسين) كتاب التنبيه والاشراف ، ط . مصر ١٩٣٨
٨٣ – ..... مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محي الدين عبد الحميد، (المجلد الاول) القاهرة ١٩٥٨
٨٤ – المقرى (احمد بن محمد) نفح الطيب من غصن اندلس الرطيب، تحقيق محي الدين ، عبد الحميد ج ٢ ، القاهرة ١٩٤٩ .
٨٥ – المقريزي (الشيخ تقي الدين احمد بن علي) : كتاب الخطط المقريزية

المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار ، المجلد الاول، بيروت ، منشورات مكتبة العرفان

٨٦ – ...... البيان والاعراب عما نزل بارض مصر من الاعراب ، القاهرة ١٣٣٤ هـ .

٨٧ – ناصر خسرو : سفرنامة ، تعريب الدكتور يحي الخشاب ، القاهرة ١٩٤٥

٨٨ – نصحى (دكتور ابراهيم) : مصر في عصر البطالمة ، ج ١ القاهرة ١٩٤٦

٨٩ – النويري (شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب) : نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ١ ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٢٣

٩٠ – النويري (محمد بن قاسم) كتاب الالمام بالاعلام فيما جرت به الاحكام في الامور المقضية في واقعة الاسكندرية ، مخطوط رقم ١٤٤٩ بدار الكتب المصرية بالقاهرة

٩١ – هايد **Heyd, Histoire du Commerce du Levant, t. I. Leipzig, 1885.**

٩٢ – ياقوت الحموي : معجم البلدان ، المجلد الاول ، ط . بيروت ١٩٥٥

فهرس عام

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ك)

(ل)

(م)

فهرس الموضوعات

الصفحة

الفصل الاول

تخطيط الاسكندرية القديم

الفصل الثاني

الاسكندرية عند الفتح العربي

الفصل الثالث

اضمحلال الاسكندرية في القرون الثلاثة الاولى للهجرة

الفصل الرابع

العمران السكندري منذ الفتح العربي حتى عصر المماليك البحرية

الصفحة

الفصل الخامس

تقدم العمران السكندري في عصر دولة المماليك البحرية

الفصل السادس

شفق المغيب : او الازدهار الاخير

الصفحة